
رواية
دائرة الموت
رجب أبو سرية

دائرة الموت

الجزء الأول
قضبان المنفى

وأنت الهواء الذي يتعرى أمامي

كدمع العنب

وأنت بداية عائلة الموج، حين تشبث بالبر

حين أغترب

وأني أحبك

أنت بداية روحي وأنت الختام

من "يطير الحمام"

محمود درويش

ما أن أتاه الخبر، حتى شعر بغصة، لم يشعر بمثلها من قبل، فلم يتمالك نفسه، إلا والدموع تفلت من عينيه رغما عنه. وهو للوهلة الأولى لم يستطع أن يفسر ما حدث، فكل شيء كان معدًا بدقَّة متناهية. وكانت احتمالات الخسارة أقل من واحد بالمائة فما الذي حدث؟

النقيب علاء البدري تعوَد على مثل هذه المواقف، ورغم ذلك لم يستطع أن يمنع دمعته الحارة من أن تفلت من مخبئها، هكذا دائما، يجيئه الخبر أولا، ويعرف الترتيبات المطلوبة منه بعد ذلك، أن يتصل بالصليب الأحمر. ثم بالإعلام، ثم بالجهات المعنية لتعميم الخبر، كل ذلك أصبح أموراً عادية بالنسبة له، لكنه لماذا يشعر بكل هذا التأثر هذه المرة؟ وهو الذي تعود على كل هذه الأمور؟

أشعل سيجارة وبدأ يعب أجزاءها بعنف. فلا يدع خيطا من الدخان يفلت دون أن يتذوقه ويتذكر أطياف الرجل الذي مضى...

رأه يملأ الدنيا بحيوية متميزة، يقرأ طوال اليوم، ويكتب في فترات متقطعة في النهار، في الليل، يغلق على نفسه باب المكتبة، ولا ينفعل حين يقطع عليه أحدهم خلوته لأسباب تافهة، أحبَه الجميع من الأيام الأولى التي جاء إلينا فيها، كان خالياً من الملل الذي يلف الجميع هنا، لكنَه كان قلقاً دائماً. وكان طموحاً. كأنه يريد أن يقبض على الدنيا بين راحتيه، لكن ماذا كان يكتب، حين كان يختلي بنفسه، تناول النقيب الورقة التي كان قد تركها له قبل أن يذهب. وأخذ يقرأ ما جاء فيها...

بدت له كأنها وصية! كيف خطر بباله أن يكتب وصيته؟ وكأنه كان قد ذهب للموت بقدميه؟

عزيزي...

إذا ما حدث لي شيء، فقبّل ابنتي، وكن حريصاً على أن تضع بين يديها أشيائي. فأنا أريد أن تتوحد أجزائي، لتستمر من بعدي، أما زوجتي فبلّغها تحيتي الحارَة، وأرجو أن تسامحني على كل شيء، وبلّغها أن ليس هناك من أنا مدين له بشيء سواها. أما أهلي وأصدقائي فقد حاولت أن أجنّبهم الفاجعة، لكن لا حول لي فيما حدث! أرجو أن تهتموا بابنتي وأوراقي!

كانت وصيته مقتضبة، لكن أية إبنة يقصد؟ وأية أوراق؟

سحب الضابط الصندوق الخاص بالرجل، وقام بفتحه، ثم بدأ يتفقَد أشياءه فيه، أوه ها هي الأوراق، لا بد أنها رفيقته في تلك الليالي التي كان يمضيها في الكتابة، ولكن ماذا كان يكتب؟

كانت الأوراق متناثرة في فوضى، ومكتوبة بخط غير منسق، لابد أنه كان في عجلة من أمره، أنني لم أر بعد رجلاً مثله، كأنه كان يتسابق مع شيء ما، ولكن هل انتهى من تدوين كل ما لديه؟ أخذ النقيب يقلّب الأوراق التي بين يديه، محاولاً ترتيبها. ثم بدأ يقرأ...

ما أن ازدادت احتمالات الموت بالنسبة لي، أو أنها أخذت طابعاً جدياً وممكناً تماماً، حتى وجدتني أرغب في شيئين فقط، هما أن أكتب، وأن أنجب، أن أكتب كل شيء بصدق وحرارة، وأن أنجب طفلة جميلة، أراها تنمو أمام عيني، حتى تجيء اللحظة المفاجئة التي لا بد منها، والى ذلك الحين فأنا في سباق حقيقي مع الوقت لا أسمح للثانية أن تمر دون أن أعبئها بمشاعري، ولا أريد في حقيقتي أن يخطفني الموت وأنا أحمل معي شيئاً يخص الآخرين، فهذا هو الموت لا يرتاح إلا حين يخطفك ويخطف معك كل أسرارك، أعرف أنه قادم، لذلك فإنني أستعد لمواجهته، ململماً كل ما استطعت جمعه من أوراق، وآملاً أن لا ينثرها القصف، أو أن تهملها الأيادي الحية من بعدي...

- هل أنت جاهز؟

- ليس بعد!

للمرة الأخيرة لملمت أوراقي، احتضنتها، قبلتها، ثم وضعتها في جيب الحقيبة الخاصة بي ثم أقفلت عليها، وتوجهت إلى القائد.

- على بركة الله.

إنها المرة الثانية في حياتي، التي أواجه فيها الاحتمال الحقيقي للموت، بل ربما المرة الثالثة أو حتى المئة، لكني كنت في المرتين أتمنى شيئاً واحداً، هو أن أكتب وأن أنجب!

نحن في طريقنا إلى نقطة التماس الحدودية، يخيم الصمت على الجميع، لكني واثق من أن كلاً منا، تضطرم في داخله، وتختلط أشرطة الذكرى ولوحات الحلم، وكلما اقتربنا أكثر من اللحظة الساخنة، كلما اتضحت معالم الذكريات والأحلام أكثر، من يقول أن الموت شيء سهل أو أنه شيء اعتيادي، أنه من أشد المواقف رعباً، خصوصاً حينما يجيء متوقعاً، ويكون خياراً لا بد منه، تدفعك إليه كل الشروط المحيطة حولك، وإذا كان لا بد منه, رغماً عنك، فما عساك أن تفعل سوى أن تكتب وأن تنجب؟

بعد ساعات من الانتظار المر، دوّت القذائف فجأة، فتحولت التلال الى منطقة براكين متفجرة بفعل النار، أو منطقة زلازل متحركة بفعل أصوات الانفجارات الناجمة عنها، حتى لكأنك معرّض للموت من فعل ضغط الصوت، إن لم تصلك قذيفة أو شظية أو رصاصة.

في ساحات المواجهة النارية، يخيم الموت على الساحة التي تضمنا. وليس سوى الحظ الذي ينتشلك من براثن الموت، فأنت إن لم تقض بالإصابة المباشرة قضيت بالعشوائية منها، ويتضح تماماً للجميع أن لا فكاك من الموت، والتحول إلى شقيقة نعمان تنبت في التلال، إذا كانت المواجهة في وضح النهار.

بقينا في الموقع ساعات طويلة ننتظر عودة الرفاق الذين واجهوا لتوّهم، وان كانت الأخبار الأولى المبنية على الاستنتاجات العسكرية، قد أشارت الى استشهادهم!

لكننا في انتظار أن يتأكد كل شيء، ولعل وعسى!

أضع يدي على قلبي، فتخشخش الورقة التي طويتها قبل قليل، أخرجها، ثم أقرأها مرة أخرى، فينفتح المدى، وتسكرني الأمنيات، أراها بكل جمال الدنيا تكبر... وتكبر، فيمر شريط الذكريات، ويتسارع وقع الأيام، كيف استطعت أن ترتب أيامك هكذا؟ يدور في ذهنك السؤال؟

لا ليس أنت من قام بترتيبها، القرار الوحيد الذي كان بإمكانك أن تختاره، هو أن تكون هنا! ليس بالضبط، ما زلت أتمنى، ما زلت أرغب، وما زلت أحلم، ولكن...

علمتك التجربة أن تكون واقعياً قليلاً... يحلق الموت فوق رأسك كل لحظة، فما عساك أن تفعل.

- إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا!

- واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا!

أرغب في أن أعيش ألف عام من السعادة، ولكن حين يحلق الموت فوق رأسك كل لحظة، ماذا عساك أن تفعل؟ ماذا عساك أن تفعل؟ ماذا عساك أن تفعل؟

غير أن تحلم كل لحظة بالحياة!

ومازلت تحلم في أن تكتب وأن تنجب فرح!

ومازلت تحلم بها، تحلم بفرح، بلحظة فرح، بطفلة تسميها فرح، برواية تسميها فرح.

المواجهة مستمرة بينك وبين الموت، له سطوته، جبروته، وليس لديك سوى الحلم، تطبعه على الورق، تستمر به بدفقة حب ثم تعيشه في لحظة، تكفيك لحظة واحدة تلخّص فيها كل قدرتك, تلملم الأوراق، ثم تستبق الأيام، فتراها منضّدة تخرج من فرن المطبعة، تحفظها الذاكرة، ترتعش الأصابع الطرية حين تقرأ الكلمات الحارة، فتلتقيك عبرها، وأنت الذي ما عشت إلا من أجلها وبقيت طوال حياتك تحلم بها. تكبر، فتتناول بدورها أوراقها، وتطبع هي الأخرى أحلامها.

هكذا نحلم بالفرح إلى أن يجيء.

أفضل وسيلة لإراحة الذهن، هي أن لا تبقى في مكان واحد، وهكذا وجدت نفسي أنهض من مكاني، وأطلق العنان للرؤية في أن تبتعد عبر المدى المفتوح، حيث الجبل الذي حاولت بالأمس تسلقه وكدت أن أقضي وكل جزء من أطرافي في واد، كان ورائي، وعلى شمالي تلة شاهقة ينمو على سفحها بساط من القمح ومجموعة من التلال على مرمى النظر، تخفي وراءها حدود المواجهة، إلى أن جاءني صوت خلته للوهلة الأولى لراع، ودون أن أفكر كثيراً في الأمر، وجدتني أسير إلى حيث صاحب الصوت.

كتاب حياتي يا عين

ما شفت زيه كتاب

الفرح فيه سطرين

والباقي كله عذاب

شدتني رنة الصوت وعذوبة الأداء وحرقته، الأمر الذي دفعني لأن أدنو منه وأستكين بهدوء في جواره، كأنني أشهد مؤمناً يصلي في محراب، انتقل لي الإحساس بقوة، فمع عذوبة الصوت وحرارة

الأداء، رأيت دمعات تحجرت في مآقيها، والفتى يتحرق لأن يأتي الخبر الذي ينفي الفاجعة رغم قناعته الأكيدة بأن ما أتى من أخبار أولية كان قطعاً!

- يا رب ردهم بالسلامة.

وأخذ يعبُّ أنفاس سيجارة، ويسرح مع خيوط المدى، في ذاك الأفق الذي إمتد أمامنا مع تموجات التلال التي لا تنتهي إلا بصهاريج اللهب.

كان "عزو" فتى أشعث الشعر، يسرق البسمة، لكنه لا يقوى على إخفاء حقيقة مشاعره، وكان في قرارة نفسه يحترق، فقد عاش معهم طفولة أيامه ومراهقة الصبا الذي أوشك أن ينقصف ولم يتفتح بعد.

- كنت معهم أمس، حيث أوصلتهم إلى المنطقة الحدودية، وبدأ يحدثني عنهم...

ما أن رأيته حتى بدأت أحاول التقاط سر ذلك الانطباع الذي تشكل في داخلي، رجل مغلف بالحزن والفجيعة، تعلو كل جزء منه طبقات الغبار وقد طالت لحيته، يرتدي ملابس متيبسة بفعل لزوجة العرق والتراب التي تراكمت عليها، ولم تجد الوقت ولا راحة البال لتنظيفها، لعبت معه الشطرنج، فكان شاردا، ثم هجم باندفاع...

لم أكن أعرف شيئاً عما يتم ترتيبه، فلم تمض سوى أيام على وجودي في الموقع، لكنني كنت أراهم يمارسون ما تبقى من حياتهم بكثير من الرغبة.

اندفع في تشجيعه للفريق الخاسر بكرة القدم في اللعبة التي شاهدناها معا على شاشة التلفزيون، وما أن انتهت اللعبة حتى أضافت إليه النتيجة غصة كان بغنى عنها.

رغم أنني لاعب غير جدير في الشطرنج، إلا أنني استفدت من اندفاعته، وبعد لحظات، هتفت:

كش ملك!

ابتسم لحظتها ابتسامة مقتضبة، ونهض دون أن يودعني.

طلب منه مسؤول الموقع أن يذهب إلى الحمام ويحلق ذقنه. لكنه تلكأ, فلم يرغب في قرارة نفسه أن يفعل، ولربما كان يفضل أن يلقاهم هكذا كإنسان بدائي...

لقد أوصاني أن أسدد ديونه، وأن أسلم له على زوجته وأهله، وأن أقبل ابنه الصغير، كلهم قاموا بتوديعنا وأوصونا أن نسلم على أهلهم وعلى زوجاتهم، إلا هو!

عبد السلام فتى عمره ثمانية عشر عاماً، إنه صديق طفولتي، ما أن استشهد ابن خالته، حتى حمل اسمه وجاء إلى هنا.

أما أبو الخير فمتزوج حديثاً، وله طفل صغير، حاصرته غابات البنادق، تهجّر أكثر من مرة ولم يستطع أن يضمن حياته بعد أن رأى أكثر من مذبحة، دون أن يحمل بندقية!

أنه عالم مسكون بالموت، ولا مفر، أينما تذهب فأنت محاصر والبنادق مصوبة نحوك من كل الجهات، لكم أحب الحياة، يرتعد كياني حين أتخيل أنني يمكن أن أموت في أية لحظة، تزوجت أول فتاة ألتقيتها، وسارعت بإنجاب طفلي الأول، عساني أضمن أن أستمر، جئت إلى هنا، فما دام الموت موزعاً حولنا في كل الجهات، فلنسرع إليه قبل أن يفترسنا بالمجان.

كان متشوقاً أن يعيش لحظات من المتعة بمشاهدة مباراة كأس العالم في كرة القدم، وينتظر أن يرى البرازيل حاملة للكأس، ما الذي يشدنا إلى أمريكا اللاتينية، هو يحب البرازيل، وأنا أحب ماركيز، ما الذي يجعلنا من مشجعي فرقها الكروية؟ ربما هي الرغبة في أن نرى فرق أوروبا تنهزم حتى ولو بكرة القدم!

مد يده إلى صدره وأخرج صورة زوجته وابنه، نظر إلى الصورة ، قبلها ثم أعادها بحنو طاغ إلى صدره مرة أخرى، إنها الحرز الذي أقوى به على الحياة! قال بعمق وحسرة. يا لها من حياة ما أن يقترب موعد طلوع الشمس، وفي اللحظة التي يعز فيها النوم، حتى نقفز إلى مواقع الانتشار، تحسباً من الغارات الجوية المفاجئة، حيث تقضي النهار بطوله تجول بناظريك في الأفق، تسامر نبتات الشوك البري، تراقب الفراشات، وعصافير البرية التي تقطع الحدود دونما جوازات سفر.

تبدأ أحلام اليقظة والمراقبة لطيف أنثى قد تقترب إلى حيث يمكن أن تميز جنسها فتحلم بطراوتها. وما أن تبدأ ظلمة الليل في فرد ضفيرتها، حتى تبدأ نوبات الحراسة، فتستفز فيك كل حواس السمع والغريزة. انتظاراً لأية مغامرة معادية بالإنزال.

ليس سوى التلال، التي تحتضن صخوراً كأنها جذوع أشجار ميته، بدأت تتشقق بفعل تراتب الفصول التي تلتحم وإياها وجهاً لوجه في معركة الحياة القاسية، حتى ليخيل إليك، أنك في قاع محيط، جفت للتو مياهه، ولا حياة هنا سوى للنبات البري المسلح بالشوك، وأي كائن يفد إلى هنا، لا بد أن يخضع لقوانينها المتوحشة، فيصير أشبه بنبتة برية، يتسلح بباورودته، كما يتسلح النبات بالشوك.

ما أن اقتربت اللحظة المحددة للمواجهة، حتى تسلقت ومجموعة من الرفاق سفح أعلى جبل في المنطقة، آملين برؤية المعركة، وفي منتصف الطريق إلى القمة خانتني لياقتي، فانبطحت أجمع أنفاسي اللاهثة، مازالت أمامي مسافة طويلة، حتى أصل إلى القمة، فكرت قليلاً، ثم قررت أن أعود أدراجي، وما أن نظرت إلى الأسفل، حتى غزا الرعب أوصالي فالسفح تراءى لي كأنه جدار حاد الانحدار، ما أن تنزلق قدمي حتى تصل أعضائي متناثرة إلى قاعه. اعتقدت أنني سأمضي الليل متشبثاً ببعض نبتات الشوك، حتى يفتقدني الرفاق فيرسلون النجدة لي، إلى أن جاء رفيق وشجعني على مواصلة الصعود إلى القمة، فهي الطريق الوحيدة لمعرفة طريق العودة من الرفاق الذين سبقوا إليها.

وما أن وصلنا حتى بدأت طريق العودة باتجاه السفح مع سعيد، الذي وضع يدي على كتفه وبالغريزة سرنا باتجاه زاوية منفرجة مع السفح، في رحلة الرعب، نتشبث بأية صخرة تصادفنا أو نبتة شوك، أقبض عليها بكلتا يدي غير عابيء بما فيها من أشواك حادة، وما أن وصلنا بر الأمان حتى تنفست الصعداء، واستنتجت أنني قد انكتب لي عمر جديد.

ما أن وصلوا إلى التلة الحدودية، بعد مغيب الشمس، حتى بدأوا في مراقبة العدو بين التلال المقابلة، يتحرك بين ثكناته بكثير من الثقة، ضبطوا أنفساهم، وأخذوا يتحرقون للحظة التي تعود فيها دورياته من ذلك الممر الذي نصبوا كمينهم فوق التلة التي تقطع منتصفه.

قبل أن يصلوا إلى تل آبيب، أوقفهم حاجز مفاجيء، طلب منهم بطاقاتهم الشخصية، وبكثير من الاستعجال، أخذ يطلق النار عليهم من مدفعه الرشاش فأردى منهم ثمانية...

رأهم أبو الخير يسبحون في دمائهم، ويمدون إليه أيديهم متشبثين بالرمق الأخير من الحياة، الذي كان يخرج من عيونهم ممزوجاً بخيوط الدم الأحمر، ثم ما لبث أن فر منهم، فاستكانت الحركة في أوصالهم.

ثار الدم في عروقه، فيما بدأت نسائم البحر التي تنبعث بعد أن توقفت أنفاسهم بملامسة وجهه, إنه هواء بلادنا، يا لطراوته ولزوجته المشبعة برائحة الدم الحار الشاخب لتوه، والذي لا يجد متسعاً من الوقت ليجف.

كانت الأوامر أن يفاجئوا الدورية المعادية، قبل منتصف الليل، وقت عودتها، بعد أن تكون قد أمضت النهار في مواقعها، وحتى يكون في مقدورهم الانسحاب تحت عتمه الظلام. انتظروا الليل بطوله، لكن الدورية اللعينة، لم تمر من أمامهم في وقتها المحدد. وفي الصباح وبعد أن أضاءت الدنيا بفعل أشعة الشمس، ومتّعتهم برؤية التلال المحرمة، التي سمعوا عنها من جداتهم، سمعوا أصوات جلبة الآليات المحملة بالجنود، كان صيداً دسماً. فلم يترددوا لحظة في إطلاق قذائفهم والدخول في مواجهة مكشوفة.

- إنه انتحار، لماذا فعلتم ذلك أيها الرفاق؟

ابتسموا جميعاً، وقد تخضبت التلال بدمائهم الحارة الثائرة، ولم يجيبوا.

هكذا ما أن تجولت في تلك التلال، حتى اكتشفت سر شقائق النعمان التي تملأ القمم والسفوح وتنتصب بعنفوان بري، تتغذى من الدماء الحارة، التي طالما تناثرت في كل مكان.

ما أن أرسلت الشمس أشعتها الأولى، وقبل أن يطل علينا قرصها، صحوت، فشعرت بألم في عيني اليسرى، ربما كان مبعثه السهر، أو الغبار أو حرارة الشمس، أو ربما كان كل هذه الأسباب جميعاً، تسربت إلى أنفي رائحة نتنة، كان مبعثها ذلك الحذاء الذي انتعلته أياماً متتالية دون أن أخلعه، ألقيت بجواربي بعيداً، وقد كانت كجلد ماعز مسلوخ. متصلبة ومتعفنة. وبدأت ابحث عن سعيد، إلى أن رأيته قريباً من الوادي المتصل مع سفح التلة, منبطحاً تحت شجرة الكمثرى البرية، محتضناً سلاحه. فما كان مني إلا أن حملت بارودتي، وبدأت بالهبوط باتجاه نبع الماء، حيث لطمت وجهي بمياهه الباردة، ثم واصلت سيري إلى حيث سعيد، وقد بدأت أتذكر ما حلمت به تلك الليلة في حالة من الانتشاء، وبقيت طوال اليوم أراجع في ذاكرتي تلك اللحظة التي عشتها بلذة خاصة، قلما عشتها في حياتي...

ما أن خرجت من الحمام، حتى سمعت أصوات العاشقين اللذين، يلفهما الدفء الحنون في غرفة النوم المجاورة، وقد تعرفت عليها من رائحة الأنوثة الطازجة التي واجهتني بها منذ اللحظة الأولى التي التقيتها فيها، أما رفيقها، فلم أتعرف عليه، ولكنني رغم ذلك مضيت خارجاً، ولم يثر الأمر لدي أدنى ردة فعل ممكنة.

كانت لحظة نادرة تلك التي التقيتها فيها، صدراً حانياً، ورقّة أنثوية طاغية، مدت لي يدها فقبلتها، راعتني طراوة الأصابع الناعمة، هممت بتقبيلها من فمها، فصدتني بأطراف أصابعها على فمي، وتملصت مني ملقية ابتسامة ساحرة، ثم قادتني إلى الحمام.

أضفت الصغيرة جواً حانياً إضافياً، ألقى سحابات من المطر على صحرائي القاحلة، داعبتها ثم ضممتها إلى صدري، فيما بدت المرأة والصغيرة مألوفتين لدي، وكأنني أعرفهما منذ ألف عام.

ما أن دخلت الى الحمام، حتى بدأت في خلع ملابسي النتنة.

ثم ألقيت بنفسي في "البانيو" وأخذت أتأمل ملامح الطراوة البادية علي والأرضية الملساء، تحسستها بيدي، آملاً أن تنتقل طراوة المكان إليهما شعرت بضرورة أن أزيد من حرارة الماء.

فقفزت إلى"البابور" وقمت بدكّه بقوة، فارتفع صوت الجهاز البدائي، فيما تراكمت طبقات الدغام على الصفيحة. أخذت أدلك مساحات جسدي التي تغطت بطبقة لزجة جراء العرق والغبار، بانت لي آثار تغلغل رؤوس النباتات الشائكة في أطرافي، تناولت قطعة الصابون، وأخذت أمسح بها جسدي، دغدغني مزيج الماء والصابون، الذي التف بالرطوبة حول جسدي، فيما هدأت أعصابي، واستسلمت الى لحظة الانتشاء التي قلما عشتها، وودت لو تستمر اللحظة ألف سنة.

ما أن جففت جسدي، حتى ذهبت الى صديقتي، التي هربت مني مرة أخرى الى الشخص الآخر, تقبلت الأمر بروح رياضية، وأخذت أفكر في حقيقة الأمر، فشعرت بالرضى، فالمرأة التقت بالرجل الذي تريد، فيما اكتفيت أنا بتلك اللذة التي منحتني إياها قبل قليل.

ألقت التحية على الرجل، الذي تطلع إلي بعينين ناعستين، ثم تمددت قريباً منه، أراقب أشعة الشمس، التي أخذت بإرسال حرارتها وخدرها، وبدأت أتأمل الشجرة التي احتضنتنا بحنان كما تحتضن الأم وليدها، بهدوء كنت أراقب المدى الذي امتد بيني وبين السماء، وكان يتسلل من بين أغصان الشجرة العجوز، لحظات وكان يغط في النوم، ليس سوى أصوات السيارات من بعيد، وليس سوى حفيف أوراق الشجر، وتموجات القمح حين تداعب سيقانها هفهفات الصباح، وزقزقة العصافير، التي كانت تحط على شجرة الكرز القريبة، فتنقر ثمارها الناضجة ومن شجرة لأخرى كان عصفور يتنقل بحرية وبفرح واضح، عصفور صغير وجميل، من أين جاء، ربما من هناك، من وراء الحدود، ربما من ناحية الجبل، أو حتى من وراء البحر؟ انه يتنقل بحرية. بدأت أفكر فيه وأحسده، لأن الحواجز لا تستوقفه وتطلب منه بطاقته، بمقدوره أيضاً أن يعبر الحدود، دون أن يصطاده الرصاص، أو تستوقفه دوائر الجوازات. يا ليتني كنت عصفوراً لكان بإستطاعتي أن أعود إلى هنا! وبدأت أتذكر حين...

تسارعت دقات قلبي، وبدأ شيء من الخوف والرهبة، يلتهب في كياني، حين وصلت الى بوابة الرمثا، وتقدمت بجوار سفري الى جهاز الكمبيوتر، وجلست بناء على طلب الموظف الآلي في الصالة أنتظر. تأملت يومها الصورة الكبيرة التي على الجدار وكأنني في حلم. معالم الأردن ها قد بدأت تتناثر من حولي.

أحرقت العديد من لفافات سجائري محاولاً مقاومة القلق الذي يتزايد مع كل لحظة يتأخر فيها النداء على اسمي.

وبعد طول انتظار، جاءني المراسل وطلب مني أن أدخل للمخابرات في الغرفة الخلفية:

- السلام عليكم!

- أسمك؟

- أحمد النايف

- ماذا تعمل؟

- محرر ثقافي في مجلة الوطن.

- مناضل؟

- . . . .

- عنوانك؟

- الزرقاء، شارع الجيش، بقالة أبو حاتم.

- عليك مراجعة مخابرات عمان.

ثم ناولني ورقة المراجعة.

شعرت بالاتزان وأنا أتجه الى السيارة التي كانت بركابها في انتظاري، وما أن التحقت بهم، حتى دار محركها مواصلا رحلتنا، كلما مررنا بتلة أو بيت أو قرية أو بلدة، يهتف ما بداخلي للسائق، أن توقف، أرغب في النزول وتلمس تلك الصخور والأودية، شعور بالزهو صاحبني فقد أعادتني الديمقراطية مرة أخرى، بعد أن اعتقدت أن سنوات المنفى ستطول كثيرا قبل أن أتمكن من العودة.

بعد ما يقارب من الساعة كنت على باب البيت، حيث كان أفراد عائلتي في انتظاري غير مصدقين، وما أن فتحت باب السيارة ونزلت منها، حتى انفتحت الأحضان الدافئة، وانطلقت الزغاريد، وتوالت العزائم، فامتلأت المضافة بالأقارب والجيران، يكبر الزهو بداخلي وأنا أسمع لأحاديثهم واستفساراتهم، وأجيب باقتضاب الواثق من تقديم الإجابات النهائية.

ما الذي أطلق ألسنة الناس؟ قبل أعوام قليلة كنا قلة من يتحدثون بمثل هذه الأمور وبأقل كثيرا من الصراحة والجرأة التي يتحدث بها هؤلاء العاديون!

ما أن أنفض الجمع، حتى اندفعت بكل قوتك تتحسس كل عقدة من أصابعها، تغمر وجهك في شعرها، تتنسم رائحته العبقة، وتخشى أن يقضي بكما اللقاء، تفر دمعة حارة من عينيها تمسحها بحنان بالغ، تخشى على نفسك العجز، تخشى التوحش، تخشى أن تفض بكارتها مرة أخرى بقسوة، تضعها في حضنك، وتحلق بها ما شاء الله الى سابع سماء، إنها لحظة فرح، تقبلها ولا تستطيع ليلتها أن تعد عدد القبلات التي أخرست الكلام بينكما، كنت تقضي الليالي والليالي وأنت تخاطبها، فيما صورتها أمامك، ولا تفاجئك وتكتسي اللحم والأعصاب. أما الآن، وبعد أن قمت بمئات البروفات لهذا اللقاء فانك تعجز عن أن تقول كلمة واحدة، يداك وحضنك وشفاهك هي التي تقول عنك، تتمرد عليك أعصابك، فتقول عنك، ماذا عساك أن تقدم لها، وأنت العاجز عن أن تكون زوجاً! وهي التي تمنحك السعادة، هي التي تتحمل عنك، فماذا يمكنك أن تقدم لها، جئت أيضاً لتبحث عن ذاتك، عن أحلامك، فتمنحك ما تريد، ولكن ماذا يمكنك أن تمنحها أنت؟

بعد ثلاثة أيام كنت في العمارة الزرقاء، حيث احتشد المراجعون من أبناء الداخل، وبعد لحظات ساقني المراسل الى الغرفة رقم (46) حيث استقبلني ضابط شاب، مهذب ألقيت التحية علية، قدم لي كأساً من الشاي على سبيل الضيافة، ثم ألحقها بسيجارة.

عجباً كأننا في سويسرا!

- ما هي أخبارك؟ عساك طيباً.

ثم بدأ في حديث طويل لم أسمع منه شيئاً، حيث كنت أغيب في تلك اللوحات المعلقة على الجدران، حديث غير مترابط وغبي، حاول من خلاله أن يضفي جوا من الألفة على اللقاء, مؤجلاً الدخول المباشر، الذي لابد منه، في الموضوع.

- ما هي مشاريعك؟ هل تنوي الإقامة؟

- نعم إذا كان ذلك ممكناً!

بشرط أن نبدأ صفحة جديدة.

- كيف؟

- لقد تعاملت معنا سابقاً، والضابط السابق تعامل معك بقسوة!

صفعة قوية أفقدتني اتزاني وجعلتني أدور، أكاد أسقط على الأرض، فاتكأت على الجدار.

- أركض لآخر الساحة، يا ابن الكلب، اليوم لازم تعترف، هنا أو في المكتب. أركض وحينما أصل إليه في طريق العودة، يصفعني مرة أخرى وهكذا الى أن تورم وجهي، وأنا أهمهم من الألم ولا أجيب. وبعد جولات لا أعرف عددها، نادى على العسكر.

- أشبحوه.

وتكورت بينهم فروجا بدأت عملية شوائه للتو، فيما انهالت العصي على قدمي الصغيرتين لحظات بين الموت والحياة، لا تستطيع وصفها. لكنها انحفرت في الذاكرة، كما انحفرت دمامل الدم والصديد بين الجلد والعظم.

- ما اسمك؟

وتغيب عن الدنيا، فيأمر الضابط الجنود بالتوقف.

كنت كخرقة شحاذ لا تقوى على حمل جثتك، يحملك العسكر الى الزنزانة، فتعتقد أنك ستغط في النوم هانيء البال، بعد أن إنهدت قواك، لكنك تفاجأ بأن اليوم هو يوم الثلاثاء، الحلقة الأسبوعية الثانية التي انقضت من عمر ضيافتهم لك بين الجدران المطرزة بآثار من سبقوك.

ثم يقومون بربطك بحيث تجبر على قضاء وقتك واقفاً على قدميك المذبوحتين، للوهلة الأولى اعتقدت أنها مزحة، أو أنها شيء من قبيل التهديد. ما أن ينتهي الدوام في الساعة الثانية، حتى يجيء الضابط المسؤول عنك، ويقيم جولة من التحقيق معك، لكن عقارب الساعة التي تشكلت في داخلك من كل ما يشير حولك الى الزمن، من أذان الصلاة، الى نوبات الحراسة المتعاقبة، تجاوزت الثانية، ثم الثالثة، فالرابعة، يتبادر الى ذهنك أن الأمر سيستمر حتى الموعد المسائي المعتاد في الثامنة أو التاسعة، تحول نظرك الى أسفل، حيث قدماك المسكينتان، فتراهما تنتفخان، تتمنى أن يغمى عليك، لتنتهي من العذاب، لكن الإغماء لا يقترب منك.

الشيء الوحيد الذي أنت متأكد منه هو انهم لا يحتملون موتك، تعود لمعادلتك الخاصة بالربط بين الإرادة والتعب، فالجسم لدية ردة فعل طبيعية، ما أن ينهك تماماً، حتى يغمى على الإنسان. وما دمت لم تصل الى هذا الحد، فلديك القوة الجسدية للاحتمال، لكنه عذاب حقيقي، والانهيار موت وشطب لمستقبلك، أنت في ورطة ولابد أن تحتمل!

تحتال على ظرفك، فتجمع حاجياتك القليلة وتضعها تحت مؤخرتك، تجلس دقيقة، ثم تنهض، حتى يطلع الصباح، تقترب من نهايتك!

يأتي المراسل، يفتح الباب ويلقي إليك ببيجامة جديدة، بعثت بها إليك زوجتك، تنقلب إرادتك مئة وثمانين درجة، فتقرر الصمود حتى الموت!

تهتز أرجاء العنبر، حيث يتردد في زواياها السكون، فتشعر بالأنفاس المتضامنة معك من كل من في الحجرات المجاورة، حتى المكلفون بالخدمة، وكان أشدهم عليك ذلك السمين، الممتليء بالبلاهة، يريحك قليلاً وقت الإفطار، تلمح نظراته الحزينة، المشفقة، فتشد من أزرك!

عند الظهر يأتي الضابط ويفك قيدك.

- يا ابني ارحم نفسك، وأنا أعدك إذا ما قلت ما لديك أن تخرج فوراً.

لا تجيب بشيء، ثم تهوي بقامتك المنهكة على الفراش، وتغط في نوم عميق حتى الثامنة مساء، حين يجيء المراسل.

- ألبس!

كالمخمور تتحامل على نفسك وتسير على كعب قدميك، وتسير وراءه الى حيث الضابط.

- السلام عليكم

- . . . .

يتفرس وجهك، فيما أنت ورغم الحطام الذي تحمله فوق قدميك، تشعر أنك أقوى منه.

- شو بعدك نايم؟

يفكر للحظات ثم يتابع

- روح كمل نومتك.

تتنهد فيما يقطع الضابط الممتليء، المرتخي على كرسيه خلف المكتب أمامك، حبل أفكارك.

- أنت على بر الأمان، والطريق الوحيد لإقامتك هو أن تصفي علاقاتك وان تتعاون معنا, ها شو قلت؟

تبتسم.

- الكرة في ملعبك، يتابع.

- على كل حال فكر في الموضوع، ونلتقي غداً.

- 4 -

في اليوم التالي، يأتيك المراسل عند الظهر.

- ألبس.

تنهض متثاقلاً، وتسير وراءه، فيما هو لا يستحثك كعادته على الهرولة.

- السلام عليكم.

- اخلع حذائك.

تفعل

يتطلع الى اسفل القدمين، فيرى الانتفاخات، التي غطت مساحة القدمين الصغيرتين.

- لازالت هناك أمكنة للضرب.

وينهال عليك، فيما تفلت أعصابه بالشتائم البذيئة التي تنال منك ومن والديك ومن كل من يمت إليك بصلة الرحم، ثم يعود بك الى غرفة التحقيق.

- ولك أصلاً أنت مش مواطن، على كل حال أمامك السجن أو الطرد ماذا تختار؟

- . . . .

يضغط على الجرس، فيجيء المراسل، يشير إليه، فيقودني إلى حيث مقر إقامتي.

تخلع حذاءك، ثم تتمدد على فراشك، تتحسس أعضاءك الجريحة، تشعر بغربة مؤلمة، حاولت جهدك أن تكون مواطناً، فاندفعت بحيويتك وشبابك، أحبك الناس، لكنك ها أنت تصطدم بجدار السلطة!

- ما الذي جاء بك الى هنا؟

ما أن انتهت امتحانات نهاية العام، حتى بدأتم في تجميع ملابسكم استعدادا للسفر. لم تسعك الدنيا يومها، فأنت ستفتح بلاداً جديدة، ستخرج من هذا الجحر الذي ولدت فيه، وستلتقي بأحب الناس إليك، البطل الذي ما كانت قدماه تعرفان التعب، وكان يسير من فتح الى فتح , يجوب بك المواقع الحدودية، ويضع بين يديك البارودة، فتطلق في الهواء، وتشعر بأن قوة الدنيا بين يديك، امتلأت منذ طفولتك بالأحلام، أنه يعدك لأن تكون قائداً كالرئيس تتقمص شخصيته، فتحفظ عن ظهر قلب، وتتقن نبراته، وتتخيل الجماهير تحتشد أمامك، يعطيك المنظار فترى في الأفق البعيد تلالاً، هناك يقيم أعمامك الذيم لم ترهم في حياتك.

- انظر هذه دورية للعدو.

- سنلقي بهم في البحر.

تجيب في داخلك، وتتابع انتظروا قليلاً حتى أكبر، وتخشى في داخلك أن ينتصر العرب قبل أن تقوم بدورك في قيادتهم لتلك المعركة الفاصلة.

ما أن تتحرك السيارة بكم، حتى لا تنظر خلفك، وتجوب بكم الطريق الى القدس، حيث تنزلون في فندق شعبي، وتذهبون لتتعرفوا على معالم المدينة المقدسة، تضيع في الأزقة، تتحسس الجدران التاريخية، ثم يجذبك لمعان الذهب الذي يعتلي قبة الصخرة، تتوه بين المعالم الساحرة، ولو لم ينتبه أخوك الأكبر لك، لضيعتك المدينة يومها في حنياها الدافئة.

في صباح اليوم التالي تواصلون الرحلة، إلى أن تصلوا إلى الجسر.

- نازحون أم زوار؟

زوار يا سيدي.

- يا هلا.

تكرههم منذ اللحظة الأولى، ألم يكونوا أعداء للرئيس!

وتنسى كل شيء حين يأخذك أبوك في أحضانه، ويأبى أن يقيم بكم في المخيم، وينتقل بكم الى حيث رتب كل شيء، وما أن يعرف أنكم قد جئتم زواراً، حتى يغضب ويمزق التصريح، وهكذا اتخذ قراره.

- لا عودة، ستقيم هنا!

كان مطلوباً رأسه، وبعد أن قام بتأدية مهمته خلف خطوط العدو، عاد الى حيث كنتم في الملجأ.

- ما الذي جاء بك؟ وكيف جئت؟

سأله عمك.

- ولماذا لا أجيء؟ جئت لأراكم وأنا قادم لتوي من بئر السبع.

- ولكن اليهود!

وأغرورقت عيناه بالدموع.

قد احتلوا المدينة. أكمل.

- ماذا تقول؟ لقد جئت من هناك، ولم أر أحداً منهم.

لم يطل الجدل بين الرجلين، فذهب أبوك الى مقر قيادته، وبعد أن تأكد من الخبر، عاد وودعكم وانطلق في رحلته شرقاً.

مر شهران وأنت تحترق ولا تستطيع أن تتخيل أنه يمكن لك أن تعيش يتيماً.

ولكنك ما زلت تذكر انك التقيت في تلك الفترة بابن عمك، الذي صار صديقاً حميماً لك، فارس الذي ولد وصار فتى في عمرك، ولم تره إلا بعد حرب 67، حين أزالت إسرائيل الحاجز العربي بينكما! وما زلت تذكر أيضاً أنك لعبت وإياه، حين جاءوا لزيارتكم، أو لنقل للتعرف عليكم، لعبة المصحف والمفتاح، وقد كان وقع خبر سقوط التل صاعقاً على الجميع، وكنت صغيراً ولكنك شعرت لحظتها وكأن الظافر قد انفجر في رأسك، والمذياع اللعين ما زال يزعق جاءنا الآن ما يلي:

بلغت خسائر العدو 270 طائرة، 463 دبابة وأحد عشر ألفاً ومائتي جندي بين قتيل وجريح. . . تجوع يا سمك، لحظات ونلقي إليك بمن تبقى منهم!

انحدرت دمعة حارة على وجنتك، مسحتها، فيما أزيز الرصاص يقترب، رفعت رأسك، عسى أن ترى رشاشاً معادياً من على الجرف يصوب نحوكم، لكنها وبسرعة خاطفة، بادرت أمك وكانت قد جمعتكم في حجرها -قطاطيم لحم- فغطت رأسك بالبطانية.

ما أن اقتربت خطوط الاشتباك من الحارة، حتى سارعتم إلى الاحتماء بحاكورة الجيران، حيث حفرتم جوراً عديدة في سوافي الرمل، وفي كل حفرة لجأت عائلة من عائلات الحارة، وتغطت ببطانية أو شرشف، عساه يحميها من الشظايا العشوائية، التي كانت تغوص في الرمل حواليكم حارة وجاهزة لإيقاف الحياة في الصدور الطرية التي لم تتفتح بعد للحياة.

كنت ولداً مدللاً لأبيك، تعبد الله والرئيس، وما أن دخلت المدرسة وتعلمت القراءة والكتابة حتى وجدت نفسك مولعاً بقراءة القرآن، يشدك صوت عبد الباسط وطريقته العذبة في التجويد فصار مثلاً لك، تحلم بأن تصير مثله مرتلاً للقرآن عندما تكبر، لم تكن تقطع فرضاً من فروض الصلاة، وبعد أن كبرت مازلت تذكر بينك وبين نفسك، وكنت حريصاً على جمع أكثر من فرض في وضوء واحد، يوم غلبتك الحاجة، وأنت على فراش الصلاة، بعد أن لعبت الكرة وأنت تؤدي صلاة العشاء.

كنت تراه في الصحف نجماً ساطعاً، فارع الطول، ممتليء الرجولة، ما أن يقول حتى يفعل وكان القاهر والظافر والعدو والامة العربية مفردات ثقافتكم التي تفتحت قلوبكم البيضاء عليها. ضحكت لبلاهة من حولك الذين صدقوا الخبر، ولم يعرفوا مغزى التكتيك الذي اتبعه الرئيس، إنها لعبته في الكر والفر، ولن يلبث الناس حتى يكتشفوا أن قواتكم قد تراجعت قليلاً لتنقض كالصاعقة وتنهي كل شيء في لمح البصر.

ما أن مالت الشمس للغروب، حتى اقتربت الأقدام الغريبة، ودقت باب الدار.

وكانت النسوة والأطفال قد تكدسوا في بيت الحمار، حيث يعبق المكان بروث البهيم الذي استضافكم بالترحاب، وكان وحده يشق السكون الذي فرضته حالة الرعب وحظر التجوال بنهيقه المتواصل، كلما أزت طائرة مستير أو انفجرت في المدن البعيدة قذيفة.

- نعم يا خواجة.

صاح عمك وكان رب العائلة.

- الشباب تخرج وتتجمع في الساحة.

خرج يومها ابن عمك فتحي، وبقيتم ساعات طوال على أعصابكم حتى عاد.

بعد أيام صار الاحتلال واقعاً تحسسته بعينيك، حين رأيت شباباً وفتيات على الموتوسيكلات، يمرون من حارتكم سواحاً، في حين تدثرت فتيات الحارة في ثيابهن السود والمناديل التي لا تظهر سوى عيونهن الخائفة.

كيف حدث هذا!

وامتد حبل الحديث في كل بيت.

- عبد الحكيم خاين!

هل تتذكرون مجموعة الضباط الذين تاهوا قبل الحرب بأيام؟

صاحت امرأة.

- نعم.

أجابتها بقية النسوة.

- كانوا جواسيس، نقلوا خرائط المطارات لليهود.

- يا عمي جمال ضحك علينا.

قال رجل فاهتزت أعماقك، ثم وبإصغاء شديد وحزن عميق، كنت تستمع بخشوع لخطبة التنحي، تخيلت الرجل الذي رأيت نفسك فيه دائماً، منذ أن رأيته في تلفزيون المقهى، تخيلته وقد هرم، وشابت على رأسه شعرات العز، يا له من رجل، لطيبته يخدعه حتى أقرب المقربين إليه! أحسست بسيول الشفقة والتعاطف تنساب من أعماقك.

وهكذا ما أن سمعت بالشائعة، حتى لجأت إليه، صديقك فارس، فسحبته من يده، وذهبت وإياه إلى زاوية الدار تحت التينة، وأحضرت المصحف الذي لديكم ومفتاح غرفة أمك وكان بحجم إصبع الرجل، ثم وضعت المفتاح في منتصف المصحف وحزمته بخيطان الطائرة الورقية وثبتّ العقدة باحكام.

مدّ كل منكما يده اليمنى، وقمتما بموازنة المفتاح من مؤخرته الخارجة من المصحف, كل حافة منه على شاهد.

- جمال خاين؟

ولكزت بيدك المفتاح، فاهتز المصحف يميناً وشمالاً، علامة النفي.

- عبد الحكيم خاين؟

ضبطت أنفاسك خشية أن يهتز المفتاح؟ وانتظرتما لحظات، ولم يهتز المصحف. فشعرت بغبطة بالغة ساعتها وأبقيت على حبك للرئيس.

بعد أيام كان صوت العرب يذيع:

- الرئيس يعلن عن حرب الاستنزاف.

شعرت بالظفر، وقلت في داخلك، وكأنك تخاطب الجميع.

- أرأيتم، ألم أقل لكم!

ما أن بدأت حياتك الجديدة، حتى بدأ الانكسار يتسرب إلى كبريائك، فلم تعد ترى أباك يتمنطق سلاحه، ولم تعد تراه شاباً تجتاحه الخيلاء، تراه يساير أضعف الناس، لا همّ له سوى أن يعيش من أجلكم، تتطلع إلى شاربيه، فتراهما قد تضاءلا، وقد أخذ الشيب يغزوهما بدون رحمة.

- أهذا هو أبي؟ أبو شنب ما الذي غيرك؟ وتتذكر الرجل الذي كانه هذا الهرم، وتتذكر الحكايات التي كان هو بالذات بطلها دائماً.

* * *

ما أن انتصف نهار الثالث من آذار، حتى تقدم رجل في الثلاثين من عمره، هو أبوك الذي كان يلبس الكاكي، ولم تكن يومها قد ولدت بعد، وكان هو رشيق القوام، بادي الحيوية والنشاط، ذا أنف حادة، تدل على الكبرياء والأنفة، يتبعه رجل أصغر سناً, نحيف, أسمر الطلعة باتجاه مقر الكتيبة (41)، الكائن في شارع عمر المختار، حيث تهب نسائم البحر، بشيء من الرطوبة البادية، التي تسري بالانتعاش في الأوصال التي تكاسلت خلال فصل الشتاء.

ما أن يصل الرجلان إلى بوابة المقر، حتى يلقيان بالتحية على البواب، الذي أصبح على مر الأيام جزءاً من تفاصيل المكان، يعرف الرجال واحداً واحداً، يحبهم جميعاً ولكنه يتأفف أحياناً من ذوي الرتب مع كل خبر، يتناهى إلى مسمعه عن كمين ذهب ضحيته بعض الرجال قبل أن يشتبكوا، فيكتم غيظه ولا ينبس ببنت شفة.

يدرك أبو شنب على الفور الأمر الذي استدعي من أجله، لذلك تراه، يحث خطاه إلى مكتب الصاغ سامي، ويقرع الباب.

- ادخل.

يلقي التحية العسكرية ويجلس ورفيقه بانتظار أن ينتهي الضابط المصري من مكالمته الهاتفية.

- أهلاً نايف.

- أهلاً يا أفندم.

- هل تعرف لماذا قمت باستدعائك؟

يهز أبو شنب رأسه بحركة تدل على أنه يعرف السبب، فهو يتوقع أن يتم تكليفه بمهمة جديدة، خلف خطوط العدو، ينشرح صدر الضابط، ولا يضيع وقته كثيراً، فيبدأ بشرح الخطة بينما أبو شنب ورفيقه يسرحان بخيالهما، إلى تلك المستعمرة التي يعرفانها جيداً، ويعرفان الطريق إليها، ولا يعلق بذهنهما شيء من تفاصيل الخطة.

- هل أنتما جاهزان؟

- تمام يا أفندم.

- إذن على بركة الله.

ثم يلقي الضابط بيده مصافحاً الرجلين، اللذين يبتسمان ابتسامة مقتضبة، ويغادران المكان؟

- نلتقي الساعة السادسة عند طرف بيارة الحاج سعدي؟

- هو كذلك.

ثم يفترقان كل إلى بيته.

عند باب الدار تستقبله أمه الضريرة، وقد اشتمت رائحته عن بعد بأحضانها الدافئة, يقبل رأسها، ثم يتملص منها وينسل إلى الداخل، يلقي التحية على زوجته، ويطلب منها أن تعد له طعام الغداء، يقبل الصغيرة، ثم يخلع بزته العسكرية ويرتدي بيجامته، تحضر زوجته الطعام، يتناوله على عجل، ثم يستلقي على الفراش عاقداً كفيه تحت رأسه الصلعاء يفكر قليلاً، يبتسم، ثم ينام.

بعد قليل تداعب الصغيرة وجنتيه بأصابعها، فيصحو، يضعها في حضنه، ثم يفتح المذياع ذا الصندوق الخشبي والبطاريات الإضافية، فيأتي صوت الرئيس حامياً، يسمع بشغف واهتمام ينظر إلى ساعته.

لقد مر الوقت، واقترب الموعد!

يثب من فراشه، ويتوجه إلى صنبور الماء، فيغسل وجهه، ثم يتناول المرآة وعدة الحلاقة ويحلق ذقنه، ثم يتأمل شاربيه اللذين ينتصبان في وجهه، ويغطيان نصف مساحته، ينهض ويرتدي ملابسه على عجل ويأخذ بإعداد حاجياته، يبدأ بالكارلوستاف، الذي يسميه البعض بالبور سعيد، لأنه كان سلاح المصريين في حرب السويس، يقوم بتفكيكه واعادة تركيبه، فيتأكد من صلاحيته، ويملأ حقيبته بالذخيرة.

تدخل أم السعيد عليه غرفته، يرفع رأسه.

- يا لها من أم! هذه الضريرة كان لها شأن في صباها، وبعد ما فقدت حاسة البصر تركزت قدراتها في حواسها الأخرى، تشمني عن بعد، وتسمع جلبتي، فتعرف وجهتي.

ويعرف بعد ذلك كل التفاصيل، فهي ما أن يغادر في خطرته، حتى تجلس في صحن الدار طوال الليل وتخرج ثدييها، تناجي ربها أن يعيده إليها، هذا الولد الذي بقي لها من خلفة السبع صبيان!

ينتعل حذاءه ويخرج بعد أن يودع أهل البيت.

في الطريق تجول بخاطره فكرة أن يمر على الموقع الحدودي الذي يراقب منه تحركات العدو، فيتذكر مهمته الصباحية في "قص" الأثر على طول الحدود، يطرد الفكرة من رأسه فلم يتبق لديه الكثير من الوقت ليلتقي مع صاحبه.

- يصل إلى طرف البيارة، ينتظر قليلاً، وما هي إلا لحظات حتى يصل سالم الذي ما أن يراه حتى يبادره بالتحية، ويجلس بجواره، يراه ساهماً، فيلقي إليه بالسؤال.

- ماذا يدور برأسك؟

- أفكر في الطريق التي سنسلكها للوصول إلى الهدف.

- ألم يشرح لنا الصاغ سامي الخطة؟

- بلى، لكنها خطته، ولا يمكن أن تكون خطتنا!

- لماذا؟

- يا أخي سالم، ألم تدرك بعد السبب وراء تلك الكمائن التي يتعرض لها الشباب، منذ فترة، يذهبون فيجدونها في انتظارهم يقتلون أو يؤسرون قبل أن يشتبكوا، هل نسيت عبد اللطيف، أبو رزق، الفار والآخرين؟

لم يناقش سالم صاحبه كثيراً، فيما ذهب إلى شجرة المندلينا القريبة، حيث قطف منها، وعاد إلى صاحبه الذي ما زال شارد الذهن، يفكر.

ما أن غابت الشمس حتى اتجه الرفيقان شرقاً فاجتازا السلك الحدودي، غير بعيد عن موقع القوات الدولية، التي باتت عاجزة عن منع عمليات التسلل من وإلى القطاع، والتي يتم بعضها بمعرفتهم، تسلل الجواسيس، رسل العدو، إلى ذوي الرتب. حينها تذكر حكايته مع الولد التائه الذي كان طعماً حاولوا اصطياده به، لولا ما كان يتصف به من حذر، لصار يومها في عداد الأموات. دائماً تتكرر الخطة، كل أسبوع مرة أو مرتين وأبو شنب من القلائل الذين لم تصطادهم الكمائن، فهو حذر دائماً كثعالب الصحراء، فارس في الليل لا تمر النملة من جواره، دون أن يشعر بها وان كان غافياً، صاح، يعرف تضاريس المنطقة كأصابع كفه.

ويجوبها في ليال حالكة الظلمة، دون أن يفقد طريقه، وبعد أن اغتيل مصطفى حافظ لم يثق بورثته، ينفذ أوامرهم، لكنه كل مرة يضع تفاصيل الخطة بنفسه، وحين يعود يجد الصاغ في انتظاره وقد استشاط غضباً.

- أنت لم تتبع خطتي؟

- ومن أدراك؟ ألم تسمع كيف نفذت المأمورية وضربت الهدف؟

وفي قرارة نفسه يعرف تماماً سر غضب الضابط المصري. فهو لم يسلك الطريق الذي رسمه له بل انه ابتعد كثيراً عنه، هكذا هو يلف على الهدف من الجهات المعاكسة، فيفاجئهم، وينجح في اصطيادهم، تساعده على ذلك معرفته بالمنطقة التي يسير فيها مغمض العينين، وفي ليلة واحدة يقطع الطريق من غزة إلى الخليل.

سار أبو شنب وعلى بعد خطوات منه رفيقه سالم، وفي يده مطرق الرمان، الذي يحمله دائماً حتى إذا وصل إلى أطراف قريته، التي صارت أنقاضاً، طأطأ رأسه، لم يبق سوى بعض من جدران الجامع،

لكنه يعرف مواقع البيوت واحداً واحداً، يقترب من البئر يتحسس جذع شجرة التين، التي ما زالت تنجب الثمار التي لا تجد من يأكلها، تذكر قرصة السمن البلدي التي كانت تعدها له أمه كل صباح، قبل أن يسرح بقطيع الأغنام، وهو في ريعان الصبا على ظهر مهرته، التي كان يحبها كعشيقة تشبه البدر، كاملة الزينة، يمتطي صهوتها والبارودة على كتفه، ويتمخطر فتنفتح له قلوب الصبايا ويتنافسن عليه، يتذكر شبابته وحلقات الدبكة، يصفر ويدندن بيتاً من العتابا، يتذكر المجلس . . حبه الأول . . أيام الحصاد.

ما زالت القرية على حالها، وإن كانت البيوت قد تهدمت فهي مصنوعة من الطين وكنا نقوم بصيانتها كل عام، قبل أن يقترب منها فصل المطر، لم يكونوا بحاجتها، فلماذا طردونا منها، يتأوه في داخله، قريتنا ولا نراها إلا متسللين تحت جنح الظلام!

انه ليس وحده الذي ينتشي بحلاوة اللقاء، بل هي أيضاً، يراها تفتح عينيها وتلوح له حين يبتعد مرة أخرى.

يوقظه صاحبه من شروده الذهني، فيحث خطاه، ويواصلان سيرهما بين التلال والشعاب التي غفت في الظلام ومعها كل ملامح الحياة، فلا صوت سوى ذلك الحفيف الطري الناجم عن ملامسة الربيع لشتلات الزرع الأخضر الذي بدأ يرتفع.

معروف عن أبي شنب أنه يمشي ولا يتعب أبداً، ولكنه رفقا بصاحبه ما أن يصلا إلى المشارف المطلة على قرية خويلفة حتى يشير إليه، فيجلس كل منهما على صخرة ملساء منبطحة كأنها مقعد من الرخام، ويمد أبو شنب يده في جيبه، يتناول علبة الهيشة المعدنية البيضاء ويبدأ في لف سيجارة، انه دائماً يتلذذ بلف السيجارة أكثر من تدخينها، وهو في رمضان يقتل وقته منذ العصر حتى ما قبل أذان الإفطار في لف السجائر. ومع أول نفس يسحبه بشراهة وبعمق، يسأل صاحبه شيئاً من الطعام فيناوله قطعتين من "القسماط" يلتهمها لكنه لا يشبع. لا يفكر كثيراً حينها في معدته فهو لم يصل بعد، يتمدد وبعد لحظات تبدأ حلكة الظلام بالتبدد، بفعل الخيوط الأولى لأشعة الشمس التي تصل قبل أن يظهر قرصها.

ينهض الرفيقان مسرعين الى ذلك البستان المنبطح على حافة التلة، والذي يستلقي باشتهاء على طرف المستعمرة، فينبطح كل منهما تحت شجرة عنب، يتذكر يوماً، وإذ هو في مكمن مشابه حين أقبلت صبية كالبدر، شقراء، ملساء الشعر، ترتدي ثوباً لا يستر الكثير من مفاتنها وكانت مع أبيها العجوز، وما أن يراها حتى يفور الدم في عروقه صاخباً فيقفز كالصاعقة وما أن تراه حتى تخر على عجيزتها، فيسحبها بقوة من يدها وقد اشتهاها، وما أن تنهض حتى يكتشف أنها قد فعلتها من شدة الخوف، كان ذلك في يوم من أيام الصيف الفائت وكان يختبيء تحت شجرة عنب، بانتظار غروب الشمس وكان -الرجل وابنته- قد جاءا الى الكرم لقطف العناقيد التي تشتهى لكل حبيب.

ابتسم للذكرى التي جالت بخاطره، وتذكر الرائحة التي ما لبثت أن دفعته الى النفور من الحسناء، وما زال لا يدري السبب الذي جعله يمضي عنها، أهو تلك الرائحة، أم الكلام الذي كان سيواجه به من قبل الجميع لو عاد بها.

بقي الرجلان على حالهما منبطحين طوال النهار وما أن بدأت الشمس بإقفال دورتها حتى بدأ بالنهوض، فاكتشف كل منهما كأن بلاطة من الأسمنت قد صبت فوق صدره بفعل العرق والطين اللذين تزاوجا على صدرهما طوال اليوم.

- سالم علينا أن نتوجه الى حيث الحرس هناك.

- لكنني أشعر بالجوع يا صاحبي.

- ما رأيك إذا أن نبحث عن شئ نأكله؟

لم يتناقش الرفيقان طويلاً، بل انسلا الى طرف المستعمرة، حيث بيت يقبع بعيداً، كأنه ضل طريقه عن القطيع، أو كأنه منبوذ عنها، لسبب لا يعرفه أحد.

قرر الرفيقان أن يدخلاه بصمت وهدوء، علهما يجدان فيه ما يأكلانه.

تحسس الزائران جدران البيت، وجالا بنظرهما بين جنباته، فرآيا الأسرة تنام بهدوء، ورغم الحذر الشديد الذي أبدياه، حيث ترك أبو شنب صاحبه يراقب النائمين في الغرفة فيما توجه هو الى المطبخ، يبحث عن الطعام، إلا أنه لسبب ما صحا الصغير فجأة، فحملته أمه وخرجت به لإسكاته، فوجئت بهما، فصاحت.

- مازي؟ فأشار لها من فوره أن تصمت وإلا. . . وأشار الى سلاحه .

ثم دخل المطبخ.

- يا الهي، يا رب السماوات لا أجد طعاماً في هذا المكان، قليل من الأواني المعدنية، صحون، معالق، كاسات شاي، لا يوجد خبز ولا خضار، لا ثلاجة. لا شيء يؤكل.

كيف يعيش هؤلاء؟ استدار ليخرج إلا انه رأى بجوار الباب زيراً، لابد أنه مليء بالماء، أيأكلون الماء؟ دفعه الفضول الى أن يتعرف على ما بداخله، مد يده ولم يفكر كثيراً، وكم كانت دهشته عظيمة، حين أخرج ملء قبضته من تلك الحبات التي كان يمتليء بها الزير، ولم تكن سوى حبات من الترمس.

انهم يعيشون على عائدات زير الترمس، الذي ينقعونه طوال اليوم، حتى إذا طلع النهار ذهب الرجل الى السوق بحصاده من الترمس، فيبيعه ويشتري بثمنه خبزاً وخضاراً الى عائلته التي تكون بانتظاره.

رغم أن الجوع ما زال يعض معدتهما، إلا أن الرفيقين لم يقنعا بملء بطنهما بالترمس، فعاد أبو شنب يسأل السيدة عن مكان يجد فيه طعاماً، فأشارت له على بيت يقبع على بعد أمتار من بيتها وقالت إن صاحبه زنجيل. فترك صاحبه عندها وتسلل الى حيث أشارت، قفز بخفة من فوق السور، فصار في داخل البيت، حيث الحظيرة المكتظة بكل أصناف الطيور التي صار يعشقها مجموعات من الدجاج والبط والأوز والديك الرومي الذي صار بحجم التيس، تغفو بدلال الاكتناز الذي انتفخ في أوصالها، بفعل الرعاية والعلف الدسم، فكر قليلاً ولكنه سرعان ما حسم أمره، فهو عاشق أصيل للديوك الرومية، يربيها أهل بيته، حتى تنضج، فيقيم عليها ولائم المفتول.

مد يده فأمسك بواحد منها، هم بأن يغادر المكان، فتذكر شيئاً ما، فمدّ يده مرة أخرى وتناول ديكاً آخر، بعد أن كان قد بخ عليها ملء فمه ماء، حتى لا تحدث له متاعب بهياجها.

ثم مضى الى رفيقه بسرعة، دون أن ينتبه إليه أحد.

ناول صاحبه الديك، ثم توجه بالآخر الى السيدة، ابتسم لها وناولها إياه، غمرتها السعادة، وقبل أن تودعهما استحلفتهما قائلة:

- وحياة محمدكم كل ما تيجي هنا تزورنا!

ودّعاها، ثم عادا أدراجهما إلى حيث كانا على حافة المستعمرة بانتظار ساعة الصفر.

- 6 -

- أبي ما الذي غيرّك؟

ويبدأ يقص عليكم حكايته بعد أن ودعكم، ما أن تأكد من صحة الخبر، حتى اتخذ قراره على الفور، وبدأ رحلته الى الشرق، وما أن قطع النهر، حتى ألقى بذكرياته في مياهه الراكدة.

- تفو على كل الزعماء العرب!

لم يكن يملك يومها سوى سلاحه، فاتجّه على الفور إلى أقرب تاجر أسلحة وباعه.

وما أن قبض الثمن، حتى تأمل الدنانير بين يديه.

- إنها تساوي عبد الناصر و. . . و. . . وكلهم.

ثم حمل فأساً على كتفيه وبدأ حياة الشقاء مع الأرض القاحلة.

- أتعرفون هذه الجبال؟ كنت أجوبها أيام التهريب في الخمسينيات، ولم أكن أصادف فيها سوى الضباع!

- ايه ربك بيكسر جمل عشان يعشي واوي!

- 7 -

في صباح اليوم التالي وقبل أن تبدأ رحلتك مع نفسك يجيء المراسل:

- البس.

ترتدي بدلة السجن، ثم تسير وراءه. بقد بدأت تعرف شيئاً من قوانينهم، في الصباح عادة تكون اللقاءات في المكاتب الرسمية في الجناح الخارجي. يقودك المراسل الى حيث المسؤول.

- صباح الخير.

- أهلاً، تفضل اجلس!

تتذكر لقاءك الأول معه.

بعد أن أهملك دقائق تصنّع فيها انشغاله، فيما كان يضع النظارات على عينيه ويراجع بعض الأوراق على مكتبه، تضبط ضحكتك في داخلك، كأنه مثقف!

عيناه لامعتان وجاحظتان، شخصيته قوية، نحيف وقوي، وقف فكان طويلاً التجأت مرتبكاً إلى الجدار وكانت قدماك ترتعشان.

- ولك شو اسمك؟

- أحمد.

- لا اسمك كمال.

- أحمد.

- اسمك حسين.

- أحمد.

- اسمك وليد.

كانت الأسماء التي يعرفك البعض بها.

- ولك شو بتفكرنا نايمين؟ ولك بنعرف كل شيء عنك.

ثم تابع بحدة وبلهجة عالية وسريعة، محلات تجارية، مواد بناء، خرا على هيك نضال، نضال ورق ونظري، نضال خرائي، ثم نهض على كرسيه من وراء مكتبه وصاح.

- تشتغل معنا ولا؟

- لا.

وصفعك، فوقعت على الكنبة! ثم نهضت، فصفعك، فوقعت، ثم مرة ثالثة.

- اشلح من أجريك!

وتناول الخيزرانة.

- ارفع ساقيك كما ترفع المرأة ساقيها!

ثم قام بضربك عليهما بقسوة بالغة.

- شو يا أستاذ أحمد، يعني الأساليب العادية لم تنفع معك! على العموم لقد قررنا إبعادك!

- إلى أين تفضل أن تذهب؟

- إلى تونس!

- لماذا؟

- لأعمل مع المنظمة.

- ولك لو بيعرفوا انك أحمر، ما كانوا شغلوك!

شعرت بغصة لما قال.

ثم عادوا بك إلى الزنزانة.

وفي المساء طلبك المحقق.

- بعدك متيّس؟ على العموم انت الخسران، تابع.

- بتعرف إنجليزي؟

ولوح لك بصحيفة كانت أمامه.

- سنبعدك إلى قبرص.

ثم ضغط على الجرس، فتبعت المراسل إلى حيث تمددت على الفراش.

-8-

ما أن صعدت الى الطائرة، حتى شعرت بنشوة تاريخية، وأخذت تمط رئتيك على امتدادهما وتستنشق أكبر قدر ممكن من الهواء، وما أن حلقت في الجو، حتى نظرت الى الأسفل، وذهبت من فورك الى الحمام، وجاهدت نفسك حتى بلت عليهم!

ارتاحت أعصابك قليلاً، تناولت صحيفة كانت أمامك، وأخذت تقرأ، فلم تفهم شيئاً، تعيد وتكرر ولا تفهم، لقد تبلد ذهنك، هذا ما اكتشفته حينها.

بعد قليل تأتي مضيفة رائعة الجمال، تفتح فاك، وتحملق بها، فتنتبه إليك، ثم تبتسم، وتتابع سيرها، تؤدي مهمتها في خدمة الركاب، ثم تعود إليك وتجلس بجوارك!

تحدثها عن نفسك، عن بطولاتك، عن أهميتك، عن ذاتك المفترضة.

- سأعود حاكماً!

لم تطل الرحلة كثيراً، وكذلك الرفقة الرائعة، تقرر أن لا تنتهي هكذا، فتلم شجاعتك وتطلب منها عنوانها، فتفاجئك بأنها سترافقك، حيث ستهبط في لارنكا فقد انتهت فترة خدمتها الأسبوعية مع انتهاء تلك الرحلة، ثم تتطوع بأن تقود غربتك في الجزيرة، فترافقها الى حيث تقيم.

لا تنام تلك الليلة، فأنت مشتاق للحديث مع أي أحد، لمشاهدة التلفزيون، لرؤية النجوم لاستنشاق الهواء، لأن تستحم، لأن تأكل على هواك، لأن تسهر، لأن تضحك وان تبكي، لأن تقبّل امرأة. لأن تحطم عظمها، وان تأكل لحمها البض، لكنها تلقي عليك التحية بهدوء وتتركك لتنام، حيث تبدأ معك في الصباح برنامجاً سياحياً!

في الصباح تصحبك الى مكتب المنظمة، فتشرح لهم ما حدث معك، يحتفون بك وبمضيفتك، يحملونك على أكفهم، وينقدونك مبلغاً خيالياً، وبعد ساعات تخرج مع سارة لتتجول في المدينة تحثها أن تذهب بك الى الشاطئ، فأنت تود أن تتزوج الشمس، وان ترى النساء العاريات في كل اتجاه، تغلي الدماء في عروقك مما ترى، لا تشدك الطبيعة على سحرها، بقدر ما تشدك النساء العاريات!

تتأبط ذراع صديقتك، وتضغط عليها، ترى النهم في عيونك، فتكتشف هارون الرشيد فيك، تتفهم حاجتك، فتعود بك الى البيت.

في اللحظة التي تقفل الباب عليكما، تأكلها، يا لك من رجل! كنت مهذباً في يوم من الأيام، وكنت رقيقاً مع النساء، تداعبهن وتحرص على أن تصل بهن الى ذرى النشوة، فما الذي غيرك؟ لتصير وحشاً؟

ومازلت تذكر أيضاً تلك الليلة، حين عدت الى البيت كعادتك، بعد يوم عملك الطويل، تناولتها وهي ترقد بهدوء الى جوارك، وما أن أفرغت ما بداخلك، حتى غفوت.

بعد لحظات انتبهت إليك، فضحكت، وأسقطتك الى جوارها، فتحت عينيك.

- هأ. . ثم غرقت في نوم عميق.

ما أن تزوجتما حتى بدأت عملك الإضافي بكل ما لديك من قوة، لم تكن علاقتكما قوية، بل كانت حديثة العهد، وكنتما بحاجة الى أن تفهما بعضكما بشكل أعمق، ولكنك كنت مزهواً بمكانتك فانشغلت عنها، فتصدع ما بينكما، تفاجئك بنفورها فيزداد همك لكنك لا تسمح لأحد أن يعيق اندفاعتك!

من بعيد تسمع صوت سيارة، فتصغي السمع، ترتاح للأنس الذي يتحقق لديك، يطل الحارس ويغلق الطاقة، تنهض وترفع الطاقة من حافتها السفلى، فينشق خيط من النور، فترى جزءاً من النزيل، أهذا هو حسن؟ منذ أن حدثتك عنه مؤيد ذلك الفتى الرائع الذي قضى ثلاثة وثلاثين شهراً محتجزاً في هذة الزنازين، ولم يحولوه إلى السجن، إلا بعد أن أضرب ثلاثة أيام عن الطعام، لم يصدقوه في البداية، فكسّروه، كان مصاباً بمرض القلب، فتأتيه النوبة أبان الضرب ولكنهم يواصلون، كان مطلبه أن يقوموا بتحويله إلى المحكمة العسكرية ليواجه حكماً بخمسة عشر عاماً على الأقل، وهناك احتمال الإعدام لأنهم ضبطوا لديه مخططات لمبنى السفارة الأمريكية، ومسدساً، رضي ببساطة بذلك، فكل الاحتمالات لديه أهون من أن يبقى مهملاً، ربما طول عمره في تلك الزنازين، كان فتى ممتلئا بالحيوية، رائعاً، ليس لديه أهل هنا، ولا أحد يمكن أن يفعل له شيئاً, ما أن أحضروه إليك، وكنت قد قضيت سبعة وثلاثين يوماً في العزل الانفرادي، ضقت فيها من السكون، ومرافقة الجدران، وتذكرت خلالها كل تلك الأحداث الصغيرة، التي أهملت في الذاكرة منذ أن كان عمرك سنتين، وكنت خلالها تغني كل ما سمعته في حياتك من أغنيات تافهة، وتعجب كيف تحفظها، في هذا الوقت الذي يمر دون أن تفعل فيه شيئاً، سوى أن ترافق ذاتك، مؤيد اندهش من هدوئك، وكان بالنسبة إليك كملاك حطّت به السماء فجأة، ما أن أقفلوا عليكما باب الزنزانة حتى بدأت تحدثه عن كل شيء، عن أحلامك، عن حبك، فهذا إنسان تلتقيه بعد سبعة وثلاثين يوماً من الصمت.

على مدى أيام وأنت تراقب، فتكتشف أنهم يحجزونه منفرداً في الغرفة الواسعة، ويأتون له بالصحف والسجائر والدواء، تسمع صوت عصفور، فتعود إليه لتنتشي، من بعيد يجيء صوت مذياع ما يصدح بأغنية ما، ترافقها، تتشبث بأي صوت، بأي حركة، بأية نظرة، لتخرج من وحدتك!

أتذكر ابن عمي فارس المنصور، إنها المرة الثانية التي أتذكره فيها بقوة هنا، فقد مر بذاكرتي في اليوم التالي لاعتقالي، وما عرفت السبب إلا بعد ذلك بأعوام، حين كنت في المواقع، وبدأت أقرأ مذكرات لمعتقل من الداخل، لا أعرف كيف وصلت إلى هناك واكتشفت أنه اعتقل في 86/1/29 أي في اليوم التالي لاعتقالي هنا.

لم أدرك السبب لحظتها الذي جاء بطيفه مرة أخرى إلى ذاكرتي، لكنني أتذكره وكأننا افترقنا قبل أيام فقط، وأتذكر طفولتنا التي عشناها معاً، وأضحك لحظة يطوف بذهني ذلك التنافس الذي استمر دائماً بيني وبينه في اللعب، خلال تلك الأسابيع الجميلة التي قضيناها معاً، وكنا نتعارك خلالها بعنف، حين يكون هو على رأس فريق من أولاد الحارة، وأنا على رأس الفريق الآخر، ونلعب لعبتنا المفضلة "الحرب" حيث نعبيء التراب بأكياس الورق ونتعامل معها على أنها قنابل، ونستخدم الحجارة، وكل فريق وشطارته في اختياره لمخبئه، وحين يبدأ الاشتباك، يلتحم الفريقان بقذف أكياس التراب، فنتعفر جميعاً، إنها الحرب, حرب الأولاد الصغار، ولكننا كنا نحب بعضنا بشكل عميق، ابتسمت للذكرى، ولكنني أشعر بانقباض واضح، ثم باكتئاب شديد، حين مر بذاكرتي طيفه للمرة الثالثة، وكنت في المنفى، استطعت تفسير هذا الشعور بعد ذلك، حين قرأت خبر موته، بعد أن كانوا قد اعتقلوه غربي النهر، في اليوم التالي لليوم الذي اعتقلت فيه أنا شرقي النهر، فخرج هو من المعتقل إلى القبر، وخرجت أنا إلى المنفى.

اليوم هو الاثنين، وأنتم في المعتقل تضبطون الوقت بدقة متناهية، منذ ساعة الإفطار ومن خلال مراقبة نوبات الحراسة والآذان، وتعدون الأيام التي تستقر في القلب والذاكرة، حركة غير عادية تجتاح السجن، فتنتاب جهاز الادارة موجة أخلاقية مفاجئة، تنظيف وترتيب لكل الغرف والحاجيات القليلة الموزعة في أركانها، كذلك أنتم كنتم قد أخذتم حمّامكم يوم أمس، ولا أدري السبب في هذا التقليد، أن يدفعوكم إلى الحمام يوم الأحد ربما كان تقليداً منذ أيام الاستعمار! يصير المعتقل أشبه بفندق والكل في انتظار هانا!

رويداً رويداً تقترب من أذنيك أبجدية الإنجليزية المخترقة ببعض الكلمات العربية، محمولة على أنغام الصوت الأنثوي، لحظات وتكون أجمل وأرق امرأة في الوجود معك!

- هالو!

- أهلاً وسهلاً.

تجلس إلى جوارك، فتشعر بالدفء، لو يقومون باعتقال هذه المرأة، إذاً لتمنيت أن تبقى وإياها إلى الأبد، لكنك تطرد الهواجس غير المهذبة من داخلك، وتتعامل معها بمنتهى التهذيب، تعطيها عنوان زوجتك، وتطلب منها أن تطمئنها عليك، وتحرص على أن تنقل إليها صمودك، فأنت صلب كالحديد، تتمسك بكل قوتك بأساس شرعية علاقتك بها، تعجب مندوبة الصليب الأحمر بهدوئك وقوتك، فتعتبرها منذ اللحظة صديقتك، وتتمنى لو يقومون بإبعادك إلى النمسا!

ليس مسموحاً للقاء الرطب أن يطول كثيراً، أما أنت فتبدأ تعد اللحظات حتى يجئ الاثنين القادم.

ما أن غادرت هانا السجن، حتى بدأ طقس آخر، الطقس الحقيقي للجلادين.

قامت الدنيا، وعرفت لحظات من الرعب، ما عرفت مثيلاً لها طوال حياتك!

بدأت الصرخات التي تقطع الأعصاب تصل إلى أذنيك من أروقة "الساحة"، الشبك هادىء وكل الناس في حضرة الموت، هدوء حزين يغطي كل شيء ووجوم هائل يكتنف الجميع، والمراسل ينتقل تباعاً من شبك لآخر، والكل ينتظر دوره، تتذكر حكاية سجن عكا، وتعرف السر الذي دفع بعطا الزير وفؤاد حجازي ومحمد جمجوم لأن يتسابقوا إلى حبل المشنقة، متى يجيء المراسل اللعين ويريحني من هذا التوتر! لكنه لا يجئ.

في تلك الليلة نام الشبك مبكراً، ولم نسمع ضحكة أو نكتة أو تعليقاً كما كانت العادة.

ما أن تصير خارج المبنى، حتى تبدأ في حث الخطى باتجاه مجمع النقابات، وكنت قد علمت أن اليوم موعد الانتخابات، إنها فرصة لأرى جميع الشباب، الذي ما رأيتهم منذ أعوام، طرت على أجنحة الشوق، فما أن تصل حتى يتجمع حولك الأحبة فاتحين أحضانهم الحارة، تلك الأحضان هي وطني الذي أتكور فيه، ومشاعرهم هي رأسمالي الذي أموت من أجله، ما أن تصل حتى تجدهم جميعاً مشغولين بالمعركة، وكل واحد يحمل قائمته الانتخابية ويواصل دعايته حتى اللحظة الأخيرة.

وأنت كلما رأيت واحداً تندفع إليه معانقاً، وبعد أن يتملص منك، يسألك عن أخبارك، ثم يتقدم إليك بقائمته!

- محمد.

بكل مشاعرك الجارفة تندفع إليه، ثم تغوصا في عناق حار.

- شو أخبارك؟ بعدك في ليبيا؟ مش هيك؟

تصاب بالدهشة، فتجيب بألم.

- لا غادرتها منذ ثلاثة أعوام!

تفاجأ باستدعائك يوم الثلاثاء، فبعد أن انتهت إفادتك، كنت تترقب يوم الخميس، ليتم نقلك كما توقعت إلى المحطة، تفاجأ مرة أخرى بأبيك واخوتك في مكتب المحقق.

- ماذا تريد لأحضره لك؟

يسألك أبوك.

- أشتهي الحلوى - الكنافة النابلسية -! ولكن لماذا؟

- لأنك مسافر غداً إلى ليبيا!

في صباح اليوم التالي تذهب إليه مرة أخرى، تنتظر في صالة المراجعين، وقد كنت وحدك وبعد لحظات يأتيك المراسل.

- تفضل.

تصعد الدرج إلى الطابق الثالث، وتحديداً إلى الغرفة 42، انك تعرفها جيداً.

تلقي التحية وتجلس على ذات المقعد.

- كيف الحال؟ والوالد؟ والإخوان؟ إن شاء الله بخير؟

ثم يتابع.

- شو فكرت؟

- . . . . !

- والله انت حر! أما أنا فقد عملت اللي علي!

ويتابع أيضاً.

- عموماً ما صار شيء، نعطيك أمر مغادرة خلال ثلاثة أيام، حيث تجد جواز سفرك على الحدود، والله معك.

تهم بالخروج.

فيضيف قائلاً.

- على كل حال، عشان خاطر أهلك ولأننا انسانيون، ويهمنا أن نجمع شمل الناس, فكّر! معك ثلاثة أيام، ليس يوماً ولا يومين بل ثلاثة.

بعد تلك العلقة الساخنة، ارتخى التحقيق، ولم يطلبك المحقق كل يوم، بل أحياناً كل يومين أو ثلاثة، لكنه يطلبك، حيث يجيء المراسل كعادته.

- ألبس.

تتبعه إلى غرفة التحقيق.

- السلام عليكم

– شو بتعمل، بتشم هوا، يعني عاجبك هالحال؟ ما تقول ها الكلمتين اللي عندك وتروح!

- ما عندي شيء.

- أنت حر! أنت الخسران، وإحنا نفسنا طويل.

- . . . .

- خليك تأخذ لك 15 سنة سجن، تضيع شبابك، منشان شو؟

عشان حكي فاضي!

وهكذا إلى أن جاء يوماً إليك المراسل بعد الثامنة والنصف مساء.

- ألبس.

وتبعته فقادك إلى الجناح الرسمي دخلت ألقيت التحية، ووقفت كعادتك في مواجهة الضابط بجوار الحائط، قريباً من الباب. لفت انتباهك هذه المرة أنه يحمل قلماً وأمامه مجموعة من الأوراق، ثم بدأ يكتب.

- اسمك.

- أحمد النايف.

- عمرك؟

- ثلاثون عاماً.

ثم توالت الأسئلة، تتبعها الإجابات التي يقوم بتدوينها، والتي شملت كل من له صله قرابة بك، أبوك، أمك، أخوتك جميعاً، عناوينهم، أزواجهم، أنسباؤك. . .

وانتهى.

ليتابع في اليوم التالي.

- وضح علاقتك بالتنظيم الفلسطيني المحظور.

- ليس لي علاقة.

- وقع.

أخذت القلم من أمامه، وفيما أنت تهم بالتوقيع، اكتشفت أنه كذب في الإفادة، بأن كتب أن لك علاقة، ولكنك ترفض الإفصاح عنها. وبسرعة وبحركة لاإرادية، تلقي بالقلم، وتصيح في وجهه:

- أنا لم أقل هذا.

راعته المفاجأة، سكت قليلاً، ثم ضغط على الجرس، فعاد بك المراسل إلى حيث تكون دائماً, لم تنم تلك الليلة, فقد أعجبتك نباهتك.

في اليوم التالي يجيء المراسل، ويقودك إلى الجناح الرسمي، ويدخل بك إلى حيث المسؤول، الذي يستقبلك بكثير من الحفاوة، ويلقي على مسامعك محاضرة عن المصلحة الذاتية التي تجهلها أنت، وبعد أن يبذل جهداً واضحاً، وتصّر أنت على موقفك، يضغط على الجرس.

- روح!

- 12 -

بعد ثلاثة أيام تعود.

- ها في شيء جديد؟

- لا.

يخرج ثم يعود، وبعد لحظات يقودك إلى غرفة أخرى.

- السلام عليكم.

- أهلاً.

- يلقاك بترحاب واضح.

- شو أخبارك؟ متذكرني؟

تحك رأسك.

- لست أذكر.

- ولو، ألم نلتق أول مرة؟

وتتذكر. . . أنه المسؤول الأول، الذي التقيته وقام بتحويلك إلى المختصين الذين يعرفون شغلهم معك!

- شو يا زلمه؟ بعدك مثل ما أنت من أربع سنين!

ويحاول بدوره معك.

- مثل ما بدك، نعطيك أمر المغادرة، والله معك!

- 13 -

في صباح اليوم التالي، يضعون الحديد في يديك، ويأخذونك مخفوراً، تحت الحراسة النارية إلى المطار، حيث يتسلمك المختصون هناك، بعد أن وقعوا لمرافقيك على ورقة "العهدة" التي هي أنت!

ما أن دخلت بوابة صالة الدخول في المطار، حتى اندفعت باتجاهك، متجاوزة كل ما كانت تمتاز به من تحفظات، واحتضنتك ثم انهالت عليك تقبيلاً، أحسست برائحتها العبقة تبث في كيانك طراوة ما عرفتها منذ فترة، فيما كنت تشعر بزهو شديد، فقد أثبتت قبلاتها أنك قد استعدتها أخيراً، للحظات لم تنتبه لمن حولك. فقد ملأت كيانك رؤية تلك المرأة التي ما عرفت مثيلاً لها، تجولتما كعاشقين للحظات

في أرجاء الصالة، ولم تتبادلا الكثير من الحديث فقد كنت مكتفياً بلمسات أصابعها الناعمة تداعب جفاف حلقك وكيانك. . .

في اللحظة الأولى التي رأيتها فيها، تخيلت أنها إنما جاءت لأجلي، بل أنها ولدت لي، وما أن وقعت عيناي على هاتيك الصبيتين القادمتين بإتجاهنا، وكنت في شرفة المكان العام، الذي يتردد عليه نخبة المثقفين، حتى شعرت برعشة تمتد في كل أجزائي وتربط لساني، وبسببها يحمر وجهي، حتى أنني نسيت تلك الفتاة التي كانت تربطني بها علاقة حسية، على أثر انجذابها نحوي، وتقديري أنا للموقف دون أن أخدعها، فأتنازل عن شيء من مثاليتي وأقبّلها، حتى هذه اللحظة مازلت لا أعرف السبب الذي دفعني لتحمل الحرمان، والترفع عن إقامة علاقة جنسية مع امرأة، لا يهتز كياني انجذاباً لها!

قامت سعاد بتعريفنا على منتهى التي تحولت فجأة الى مثار اهتمام كل الأوغاد الذين كانوا للحظة، أصدقائي، لكنهم يتخلون عني في هذه اللحظة، ويتحلقون حولي، يناقشونني في مسائل عامة، بعد أن قمت بضيافتهم، وأنا أتحرق للتخلص من هؤلاء السفلة!

استأذنت الفتاتان بالانصراف، لم أكن مستعداً لترك تلك الفرصة التي أشعر فيها بالانجذاب لفتاة لحد الموت، وكأول مرة في حياتي، أن تضيع! فقمت بمرافقتهما حتى موقف "السرفيس"، ورغم أن وغداً من هؤلاء أياهم أبى إلا أن يرافقنا، إلا أنني تحاملت على خجلي وتعرفت على أكثر من أسمها، وقمت بدعوتها الى الندوة التي سأقوم بالتحدث فيها بعد أيام.

بعد دقائق من بدايتي وكانت الصالة تغص بالحاضرين، جاءت فنسيت نفسي، وما صحوت إلا ونحن -أنا وهي- في تلك الكافتيريا الحالمة نحتسي شاياً، وأتحدث أنا، وتسمع هي، ساعتان مرتا دون أن نشعر بهما، إلا على أنهما لحظات قصيرة جداً، ولم تنطق هي إلا بالقليل، شعرت كأني أعرفها منذ ألف عام، أستحضرت كل إمكانياتي في الثرثرة وكانت هي مراهقة ثورية، فأعجبت بي أشد الإعجاب، لكنها لم تتلمس فيها حقيقة دوافعي نحوها.

- ما الهدف من علاقتنا؟

سألتني في اللقاء الثاني، فوجئت بالسؤال، كما أنني أستأت أيضاً، ولكنني كنت واضحاً، وبعد تقديم سفسطائي، أجبت:

- أرغب في إقامة علاقة خاصة معك!

ارتاحت لصراحتي ووضوحي، فبدأت تدندن أغنية جميلة، حتى غادرنا المكان، الذي أصبح بعد ذلك مقراً نلتقي فيه كلما توتر ما بيننا!

كانت المرة الأولى في حياتي التي أقوم فيها بالاحتفال بعيد ميلادي، صحيح أنه يصادف كل أربع سنوات مرة، لكن هذا لم يكن السبب، بل نحن لم نتعود أن نحتفل سوى بأيام الأعياد الدينية، ومن ثم الوطنية، بغض النظر عن كل ذلك، فقد أعددت للاحتفال به ودعوت حفنة من أصدقائي وأقمنا حفلاً متواضعاً ولكنه شيق.

وفي الحفل سألتني سعاد عن صديقتي، فتفاجأت النساء الحاضرات بأنه ليست لدي صديقة خاصة، حينها ملت على سعاد، بعد أن عرفت أن لديها، صديقتان قاطعتان للوصف وطلبت منها أن تعرفني عليهما.

ما أن أطلت الصبيتان، حتى تبادر الى ذهني، أن سعاد قامت بدور الوسيط الغرامي, إلا أنه تبين لي بعد ذلك أن الأمر لم يتعد الصدفة، ويا لها من صدفة، لكني بيني وبين نفسي، كنت مصراً على أن الأمر كان مرتباً، وأنها سعت من أجلي، رغم كل شيء فقد بقي الرابط بين تعرفي على فتاتي وحفل عيد الميلاد ماثلاً في ذهني، وكل عام أحاول أن أحييه عساه يكون فاتحة للالتقاء بامرأة جديدة، إلا أن زوجتي تبتدع كل عام مشكلة، فتفوت فرصة الاحتفال بالتاسع والعشرين من شباط.

كانت فتاة حلمت بها طوال حياتي، إنها تناسبني تماماً، أصبحت لا أحتمل فرصة أن تضيع مني، إنها هي, ولا اعتقد أنني يمكن أن ألتقي امرأة أفضل، تحولت حياتي منذ عرفتها الى حلم مستمر، ما أن تجيء، حتى أظل أتأمل وجهها طويلاً، فلا تشعر بالحرج، أنها واثقة كثيراً من نفسها، ربما تكون في داخلها ضعيفة، وتتصنع الصلابة، وما الذي يمنعها وهي تراني مندفع العواطف؟ ما كنت حينها مؤمناً بأهمية التخطيط في الحب، أومن بالبساطة والتلقائية الشديدة، وما الذي يمنع الناس من أن تحب، وأن تسعد بحبها؟

لكنني لم أكن أدرك لا طبيعة ولا حجم ذلك الوهم الراقد في أعماقي، والذي هو إني محط إعجاب الفتيات، وحلمهن الأزلي، ففي الحقيقة لم أصادف-باستثناء امرأة أو اثنتين- نساء استثنائيات أو مهمات الجمال سعين إلي، هذا الوهم الذي هيأ لي أنه ما أن أحب من جهتي، حتى تصبح الأمور جاهزة!

تقدمت لها فوراً وبدون تردد، وبعد أسابيع كانت زوجتي.

- هل من الضروري أن يفض الرجل عذرية عروسه في الليلة الأولى؟

وهل تؤلم هذه العملية؟

- لا ليس من الضروري، بل الضروري هو أن يكون الزوج حنوناً، فيداعب فتاته، وبعد أيام من العشرة الحارة، تهدأ فيها أعصابها، يمكنه أن يقتحم حصنها!

انتهت تلك العادة التي كانت تتحكم بأبائنا، حين كان أباؤهم ينتظرون وراء الباب، بعد أن يغلق على العروسين، ويبقون حتى يخرج إليهم العريس بالقماشة البيضاء المطرزة بقطرات دماء البكارة، ورغم ذلك ما أن اختليت بها، حتى توترت كل أوصالي، وعشت لحظات ما زالت مركز الذاكرة، على اعتبار إنها أجمل لحظة في حياتي.

وكنت خلال الأيام الماضية ما أن ينتهي التحقيق، وأعود الى زنزانتي وتأخذ أعصابي شيئاً من وضعها الطبيعي، فترتخي، حتى ابدأ بشوق في انتظار ساعات الليل التي تبدأ في حدود العاشرة مساء، حيث يبدأ الحلم، أتزوج فتاتي كل ليلة، كنت اعتقد أن اللحظات التي اقضيها في حالة الوصال الجنسي، إنما هي اللحظات الوحيدة السعيدة، التي يمكن أن تحسب من حياتي، وكم تمنيت أن أعيش حياتي في حالة جنس دائم، حينها أتأكد من أنني عشت هذه الحياة! أما الأيام التي تمضي دون هذا اللقاء الحار، فأنما تمضي منا غباء وما هي الحياة سوى مرة واحدة، فما عليك إلا أن تحسب عدد ممارساتك الجنسية، مع عدد النساء اللواتي التقيت بهن، لتعرف إن كنت قد عشت سعيداً أم لا.

ست ساعات إنتظرتها في غرفة مظلمة، الى أن جاءت الطائرة، فقاموا بكل الإجراءات، وأنت قابع هناك، تبتسم فالإجراءات تتم بسرعة، وأنت الآن لديك-واسطة- قوية لعمل ذلك وقبل أن يتوجه المسافرون الى سلم الطائرة، يسحبك جندي مسلح من يدك، ويذهب بك حتى يدخلك باب الطائرة.

يرتاب طاقم الطائرة في أمرك، فيقومون بتفتيشك بدقة، ويراقبونك طوال الرحلة.

- هل أنت مبعد؟

- . . . !

ما أن تقلع الطائرة حتى يبدأ بالاحتراق ما بداخلك، فتنظر من شباكها، إلى تلك التلال والمروج التي طالما انطلقت فيها كعصفور صغير، فتتذكر أيام الدراسة والمراهقة تشعر بالقهر يهز كيانك، بعد فترة، أعصابك لم تعد تحتمل، فتستسلم للخدر، وتشعر كأنك قشة تتقاذفها أمواج عاتية، ولا تعرف شيئاً عن اللحظة القادمة، أين ستكون؟ وما هي المتاعب التي ستواجهك؟ وأنت متهم، ما دام ليس لديك وطن، تود لو تحطم شباك الطائرة، وتسبح في الفضاء متحرراً من جاذبية الأرض، التي تجرك دائماً إلى أسفل, وحدها الطيور التي تقوى على الجاذبية، لكم وددت لو خلقك الله طيراً.

ساعات طويلة وقاسية وأنت تجهل مصيرك في اللحظة التالية. تحترق أعصابك حيث يلقى بك بعيداً عن كل هؤلاء الذين عايشتهم وأحببتهم، وشكلوا حياتك الماضية وكانوا جزءاً من طموحك، من مستقبلك، ولا تعرف متى ستراهم، بل أنك لست متأكداً أن كنت ستراهم في يوم من الأيام، وكل ذلك بسبب ماذا؟

ألأنك رفضت إلا أن تكون رجلاً**!!**

حينما كنت صغيراً، كنت تحلم دائماً أن تركب طائرة تجوب بك الآفاق، فترى كل البلاد التي تقرأ عنها، ولكنك الآن تسافر رغماً عنك، بعد أن منعت من السفر سنيناً، هكذا نحن دائماً نمنع من السفر حين نرغب فيه، ونجبر عليه حين لا نرغب فيه**!**

بعد ساعات طويلة، تحط بك الطائرة، تهبط مع المسافرين، كأنك في حلم.

- الجماهيرية أرض كل عرب.

تمكث في المطار ساعات الصباح الأولى، حين تواصل رحلتك إلى عمق الصحراء، ترتعب أوصالك تطل من النافذة الزجاجية فترى كثبان الرمال اللاهبة في آذار، وتتخيل طول المسافة التي مازالت تمتد بك بعيداً إلى هناك، تتمنى لو تقطع مثيلها في التاريخ فتركب بعيراً يعود بك، بعد أسطورة هلالية ولكنك على كل حال ما كنت ستجد معابر حدودية مدججة بالأختام وبأجهزة الكمبيوتر، التي تبحث عن الرجال أمثالك**!**

وكلما أطللت من النافذة تكتشف أنك مازلت داخل دوائر السجن محاصراً بالكثبان الرملية, فعلى امتداد الصحراء التي تتراءى تحتك ومع كل هدير لمحركات الطائرة، تبتعد أنت بالمقابل خطوة باتجاه المجهول بعيداً عن فتاتك، لكنك كنت واثقاً أنها ستجيء، هذا يريحهم**!** أن يتخلصوا من اثنين مشاغبين بدلاً من واحد**!**

في المساء رن جرس الهاتف وكانت على الطرف الآخر، رقت أذنك ومن ثم أعصابك لصوتها الجميل، لم تكن مقتنعة بسفرك**!** فبدأتما الاختلاف من جديد، في حقيقتك كنت دائماً ضد الاختلاف، ليس لأنك غير ديمقراطي، ولكن لأن الاختلاف مع منتهى بالذات يبعد رحيق حبها عنك فتذهب منك أيام وربما أسابيع الى خانة الأيام التعسة.

ما أن يسمع الفلسطينيون المنفيون لأسباب متعددة، لكنها متشابهة، في تلك البقعة الحارة والمجدبة من كل شيء، من العالم، بأن منفياً جديداً قد جاء، حتى يبدأون بالتوافد إليه.

بعد أن تغيب الشمس وتنتهي ساعات الدوام الرسمي، وهذا ما حدث معي بالطبع، ورغم أنني كنت منهكاً وهشاً لا أستطيع احتمال كل هذه الرفقة، بعد تلك الشهور التي قضيتها مرافقاً وحدتي، إلا أنهم ما أن يجتمع العدد أربعة أو أكثر، حتى يتحلقون حول أوراق اللعب ويبدأ "الدوري" , الذي ترسخت بفضله قوانينهم الخاصة، كأن يتوج الأول ملكاً طوال الجولة الثانية، فيحدد من الذي يلعب، يحكم بينهم، ويكون مرجعهم، لم يكونوا كثيري العدد، بل كانوا أشبه بشلة، تلتقي كل ليلة عند أحدهم، ففي هذا المكان تنعدم المسارح ودور العرض والحدائق والأسواق الحديثة، والمحيط موحش والغربة خانقة. وعلى هامش هذا التجمع وفي محيطه تجمع آخر لزوجاتهم وثالث لأولادهم، ولكل منهما طقوسه الخاصة. أما أنا فكنت المتفرج الوحيد على كل هؤلاء!

هذه البقعة معزولة عن العالم، بل عن الحياة، بصعوبة تلتقط إذاعة تنطق بالعربية تبث أخباراً محايدة، أما الصحف أو المجلات الدورية، فقليل منها هو الذي يصل، وبأسعار مرتفعة، والأسوأ من ذلك إنها تجيء متأخرة أسبوعين على الأقل، ولعل هذا أحد الأسباب التي تفسر هذا التخلف العام!

مضت ثلاثة أسابيع وأنا أحاول أن أتصل هاتفياً بفتاتي، لكن الخطوط مهترئة، وكل شيء يتأثر بالسياسة، وبعد عذاب حقيقي جاءني الصوت الساحر قاطعاً آلاف الأميال، وبعد عذاب آخر أقنعتها بضرورة أن تبدأ في إعداد أوراقها لتلتحق بي، لنبني عشنا الصغير معاً في بقعة من هذا العالم الضيق الى حدود الاختناق.

ولأن كل معاملة مطلوب من صاحبها أن يراجع الدوائر الأمنية فكان عليها أن تفعل.

وعلى مضض ذهبت إليهم، وقدمت معاملتها.

- عليك مراجعة الغرفة (42).

قالوا لها.

- لماذا ترغبين بالسفر؟

- لالتحق بزوجي.

- عليك أن تعترفي، وعليه أن تعترف، هكذا ببساطة تعتقدون أن السفر بسيط؟

- بماذا أعترف؟

- لا أدري، المهم نريد معلومات!

- لكن ليس لدي ما أقوله.

- اذهبي، ليس لك عندنا موافقة على السفر!

يبدو أن المسألة أعقد مما كنت أتصور، وأنا بين الجدران أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، أواجه الفراغ، فقررت أن أعمل، ولم يكن شيئاً صعباً أبداً أن أجد عملاً، وفعلاً بعد أيام كنت في مكتبي لم أكن

أجد ما يستهلك جهدي ووقتي، فالحياة هنا تسير ببطء شديد، والمطلوب منك خلال عام كامل، تستطيع انجازة في ثلاثة أيام، حاولت أن أقرأ، لكنني كنت أفكر بها دائماً.

- صباح الخير.

- أهلاً وسهلاً.

كانت امرأة سمراء البشرة، نحيفة، جريئة، ما أن رأتني حتى أخذت تحملق في وجهي، فأذوب خجلاً، هي الأخرى لا تجد ما تعمله، فتبحث عن زميل تقضي معه الوقت في الثرثرة.

ومع الأيام تحول مكتبي، بحكم أنني الوحيد المواظب على الدوام، الى مكان يتجمع فيه الزملاء العاطلون عن العمل، رغم أن الجميع يأخذون رواتبهم كاملة آخر الشهر، يا لمساوىء النفط، أنه يعلّم الناس التنبلة!.

كل يوم تجيء زينب الى مكتبي، تقضي الساعات معي، وأحياناً لا يكون سوانا، فتكون هذه الأحيان مناسبة لتتبجح أمامي بتفتحها وتحررها، أما أنا فلم أكن أرى فيها سوى قردة ما زالت تشذ عن قاعدة داروين. الى أن جاء يزورني يوماً صديقي المهندس فيصل وهو شاب أعزب، أمضى خمسة عشر عاماً يجوب الصحراء، غريباً، كثعلب يبحث عن الفيء طوال النهار، حتى إذا ما جاء الليل كان له معه شأن آخر، والحق أن هذا الشاب حاول جاهداً أن يخفف بعضاً من وحشتي فاعتدت على أن أقضي معه الأيام والليالي هارباً من سهرات الورق إياها! انتبهت لنظراته، وللحوار الجدي الذي بدأ من خلاله ينصب شباكه حول المرأة السمراء، وحين غادرت سألته مستغرباً عن سر اهتمامه بها، فأجاب ببساطة لأنها جميلة!

- حقاً؟

ومنذ تلك اللحظة بدأت أفكر في الأمر، كانت لي نظرتي الخاصة ليس تجاه زينب، وإنما تجاه النساء، فلكل امرأة نكهة خاصة، ولكن هذه السمراء؟!

- وماذا يضيرها لون بشرتها؟

تساءلت.

الحق إنني في أعماقي السحيقة متأثر بالتمييز العنصري، رغم أنني أسمر، إلا أنني أرى السود ذوي مستوى أدنى، ولأتجاوز هذه المشكلة، نحيت جانباً لون بشرتها، وبدأت أستعرض صفاتها، لكنني كنت أعتقد أنها لا تملك ما يثير في داخلي شيئاً، فهي نحيفة لا أرداف ولا صدر، وتملك فما واسعاً ذا شفتين غليظتين، وصوتها رخو، لكنها غير متحفظة، الحقيقة أنها لم تكن امرأة، بقدر ما كانت عضواً أنثوياً، فصّل له الله جسداً ليقوم على خدمته، وما يؤكد ذلك أنني شعرت بها كلبؤة تهمُ لافتراسي، الأمر الذي أفزعني، ودفعني للتعامل معها بجفاء وعنجهية واضحة، ورغم أن ذلك كان واضحاً تماماً لها، إلا أنها لم تتراجع قيد أنمله عن تصميمها، خصوصاً وهي تعلم سر ضعفي!

مساء ذلك اليوم كان المهندس فيصل يعد لي مفاجأة هائلة، فجاء عندي وأقلني بسيارته الى بيته، حيث كان قد أعد كل شيء، السمك واللحم، حيث مكثت وإياه في المطبخ أكثر من ساعتين، نعد عشاء خرافياً، وما أن بدأنا نتناوله حتى أحضر مشروباً كان يقوم بتقطيره في البيت، وما أن بدأت الأعصاب ترتخي، والخيالات تشتعل، حتى وضع فلماً خاصاً في جهاز الفيديو، وبدأت "الفرجة".

فيصل رجل يعيش من أجل المتعة التي لا يجدها سوى في النساء والشراب، ورغم أنه في الصحراء القاحلة، إلا أنه لا يعدمها أبداً، له أساليبه الخاصة، يعمل بهدوء وبكتمان شديد، ودائماً يصل الى ما يريد، لا يفكر في شيء آخر، وقد ألقى الدنيا بعيداً من وراء ظهره، لكنه شهم وأخ وفي لصاحبه.

أطارت "الفرجة" من رأسي الشراب، وأشعلت نيران جهنم في أوصالي، وما أن اختليت بجسدي في الفراش، حتى بدأت أفرغ ما بداخلي من توتر. أو أنني اعتقدت مخطئاً ذلك، فما أن تهدأ أعصابي، حتى تعود للاشتعال من جديد.

الأيام تطول وتمتد وما بيننا من مسافات لا يبدو في الأفق إنها ستنتهي، ووسائل الاتصال متقطعة, لكن القليل منها يصل.

كانت منكمشة على نفسها، تجالس وحدتها، وتفكر في همها الذي لا ينتهي حين وصلتها رسالتي، قرأتها باهتمام، فانهمرت الدموع الحارة على خديها، تتصوب النظرات التي تحيط بها كالسهام السامة، وتتركز عليها، فتشعر بالحرج والاختناق، وتتمنى لو تنشق الأرض وتبلعها ماذا عساها أن تفعل؟ انتظرت طويلاً أن يمد لها الفارس يده وينشلها من همها، ولكن الأيام تمتد وتطول، وتتسع مساحات الألم والغربة، وكل من حولها يسألها كل يوم ذات السؤال.

- متى تسافرين إلى زوجك؟

فلا تجد إجابة للسؤال الذي يتردد في داخلها أيضاً آلاف المرات كل يوم.

ما أن أصد زينب في النهار، حتى أعريها في الليل، فأراها تلعب بي كما تشاء، تجلجل في أوصالي ضحكاتها، تأوهاتها، لكنها كقطعة المخدر أو ككأس الشراب، تبتعد بي إلى آخر الدنيا، وما أن أهرب منها مع طلوع الفجر، حتى أكتشف أنني أتوتر أكثر من اليوم السابق وتدور الدورة كل يوم، حتى أصبحت كأبله يراقب كل ثغر , ما كان يتبادر لذهنه يوماً أنه يمكن أن يفكر في الاقتراب منه.

الطقس حار والداخل يشتعل، ونوبات الهوس أخذت تنهش أعصابي، وأنا مشدود إلى هناك إلى فتاتي التي كانت أشبه بالحلم، ثم تحولت إلى حلم حقيقي. أفلتت لحظات الواقع من يدي، كومضات البرق التي تجيء لحظة ثم تنتهي، وأنا الذي اعتقدت يوماً أنني قد وصلت إلى شواطيء الأمان، حلاوة الواقع على محدوديتها دفعتني للتمسك بها، كنت على استعداد للتخلي عن كل شيء، إلا عنها، لكنها مثلي تتعرض لضغط الغريزة ولجفوة الصحراء، وإذا ما ارتضيت شيئاً لنفسي، فلابد أن أرتضيه لها، وهكذا اتفقنا كلانا، على التمسك بالحلم رغم كل شيء.

تعيش حياتها وأعيش حياتي ويجمعنا الحلم، ومرة أخرى أتأبط ذراعها، وأزيح الطرحة عن رأسها، وأقبلها في جبينها، ثم في شفتيها أضمها بكل حنان الدنيا إلى صدري وأغيب في عالم اللذة.

- أتمنى أن تنجبين لنا طفلة، تكون جميلة ورائعة وذكية مثلك.

- أريد ولداً قوياً، فارساً، يحلق في الغبار.

- سأسميها فرح، وما أن تبدأ في التكوين في رحمك، حتى أبدأ في أسماعها أنغام الموسيقى لأنني أريدها أن تكون فنانة، أو حتى لاعبه تنس!

في حقيقتي رجل شغوف بالموسيقى، ثم أحببت على كبر الرياضة، ولا أدري السبب، ربما لأن هذه المجالات تصنعك نجماً "على البارد المستريح" وتملأ جيوبك ذهباً ودونما مغامرة أو جهد يذكر،

وقد نشأت في بيئة تعتبر الفن خلاعة، والرياضة مضيعة للوقت، وكان أهلي يعدونني منذ الصغر لأن أكون طبيباً أو مهندساً، وكان الأفق ينغلق عند الحدود أمام عيونهم، ولذلك ترفعت عن الموسيقى، ولم أمارس الرياضة يوماً في حياتي.

وربما كان السبب ردة فعل لديك ليس أكثر، تمثلت في محاولتك أن توفر لنسلك ما حرمتك منه الأيام الغابرة!

- ربما!

أكثر من أسبوعين مرّا وأنت تحاول الاتصال بها، دونما فائدة، فيدفعك شيء ما إلى الخروج من مقر عملك باتجاه البريد، وتبقى أكثر من ساعتين بدون جدوى، يتملكك اليأس، فتخرج لتفاجأ بصديقك فيصل وقد جاء إلى مكتب الخطوط الجوية المقابل للبريد في مهمة ما، يأخذك معه إلى مكتبه، لحظات ويرن جرس الهاتف، ترفع العاملة السماعة.

- آلو، نعم، موجود.

وتناولك السماعة.

كانت المرة الأولى منذ شهر، تلك التي دخلت فيها المكتب، وتفاجأ أن من كانت على بعد آلاف الأميال، إنما تضع فمها في أذنك، فيذوب صوتها في خلايا جسدك!

وتبقى أصداء الكلمات تتردد في داخلك حتى المكالمة التالية، إنها الكلمة الأولى التي نطقت بها فرح، وهي تحاول الآن أن تتهجأ أحرف اسمك.

- بابا.

تضع يدك على قلبك، لكم أرغب في أن تعيش هذه البنت حياة مختلفة عن تلك التي عشناها، لكم أرغب في أن لا تهتم بالسياسة, أن لا تحمل السلم بالعرض، لكم أتمنى أن تكون فنانة أو راقصة بالية، أو حتى لاعبة تنس، أي شيء من هذا القبيل الذي يوفر لصاحبته حياة مريحة، مليئة بنسمات الهواء، وبعيدة عن المشاكل لكنني أخشى أن تتمرد على رغباتي وأنا أدرك في نفس الوقت، بأنني سأحاول أن أتجنب التدخل في فرض مسار محدد لحياتها.

تضع قطعة اللحم منك في حضنك، تقبلها ألف مرة. وتضع في جهاز التسجيل، أغنية فتسمعا معاً، تحضر لها كل الألعاب التي تجدها في السوق، تعلمها مشاهدة التلفزيون، عندما تكبر قليلاً سأعلمها أن تقرأ الشعر، أريدها أن تعرف أرق وأجمل ما في هذا العالم، سآخذها للمسرح إلى الشاطيء، إلى الملاعب، إلى الحدائق، أريدها أن تعيش حياتها!

لقد بدأت تحاول الوقوف على قدميها، وهي الآن تجوب كل زوايا البيت، وهي تحبو على مؤخرتها، كما إنها تتعامل مع الجميع وتصفق بيدها، وتتحدث بلغة غير مفهومه، يا لها من بنت!

رغبة عارمة تجتاحني لأن أضعها في حضني، فاوزع بين ثناياها كل ما في القلب من دفء وحرارة وشوق للقاء، تتساقط الدمعات الحارة من عيوني، فتلتقطها الأوراق، تختلط الكلمات بالدموع، فتشتعل المعاني...آه ثم آه لو يسمع العالم هذه الآه.

هل تشاهد فرح التلفزيون؟ هل تعرفت إلى الجيران؟ هل رأت الصغار يرفعون بأيديهم شارة النصر؟ هل شاهدت بيد أحدهم مقلاعا؟

أمس حملتها على كتفي وشاركت في مسيرة الاحتجاج على المذبحة، لم تنم طوال الليل فالصخب الذي كان يتوزع حوالينا هز كيانها! فبدأت تضطرب، وتصرخ بكلام غير مفهوم.

أما أنا فقد حلمت تلك الليلة بأنني في السجن، وبعد أسابيع ليس مهما أن تعرف عددها فوجئت بأنهم يطلبوني للزيارة، اهتزت أركاني، إنها المرة الأولى، طرت على رؤوس أصابعي ومن وراء الشبك كانت بانتظاري، بكل الشوق الذي في الدنيا، لمست ما سمح الشبك به من جزئيات لحمها، وفجأة بدأت أضرب بقبضتي على الشبك، أود أن أضعها في حضني.

- ما هي أخباركم حدثيني عن هذه الصبية، هل تحددت اتجاهاتها؟ هل تضعين لها كاسيتات الرقص في جهاز التسجيل كما أوصيتك، هل تتفرج على برامج الرياضة؟ هل؟ هل؟ هل؟

- نعم وضعت لها! لكنها تعلمت أن تطفيء الآلة على شريط الرقص، وتعلمت أن تحوّل موّجه التلفزيون عن برامج الرياضة وحين تنطق الأخبار تشاهد باهتمام معارك الحجارة وبالكاد أستطيع أن أمنعها من الخروج إلى الشارع.

رغم كل شئ، تبقى قناعاتك، لكن بحماس أقل، كان الشباب يفر سريعاً، كنت لفترة خلت تعتقد انك ستغير الدنيا، ولكنها كأعند أنثى هي التي تغيرك! متثاقلاً تذهب كل يوم إلى عملك، وبآلية ورتابة وميكانيكية معتادة، تتقزم الطموحات، وتتقلص الأحلام، لكنك تستمر!

مددت يدي ومررتها على رأس الصغيرة، لقد كبرت الآن، صار عمرها ثلاث سنوات، وقد بدأت تختار مسار حياتها، قبلتها، قلبي معك. وحين انتهت الزيارة غادرتني المرأة والبنت، التي التفتت لي ورفعت يدها، وصنعت شارة النصر.

يقطع عليك شرودك صوت فيصل الذي ناداك عدة مرات، فتتنهد وتلتفت إليه باستياء، فقد انقطع ما دار بذهنك: يعني حرام لو هالشيء صار؟ ثم تنهض فتفتح التلفزيون , الساعة الثامنة والنصف وهذا موعد نشرة الأخبار حيث تطل طفلة تشبهها، تحمل حجراً وترفع شارة النصر.

فتنفرج أساريرك وتستسلم للخاطر الذي جال بذهنك ثم تنام.

في النقطة الحدودية كانوا بانتظارك، ورافقوك حتى غادرت السيارة التي كنت فيها إلى الجهة الدولية المجاورة، تقطع السيارة بك المسافات الطويلة وتبتعد بك إلى حيث لا ترغب. ما زالت تلويحة اليد ترتعش أمام ناظريك، وتفكر في اللحظة الحلوة، تبتسم الآن لا بأس أن أمضي، ترى البذرة التي قذفت بها، وترى البطن الذي احتواه يكبر ويكبر تنفرج أساريرك، ويهدأ بالك.

الآن لا بأس أن أمضي.

الجزء الثاني
من هو الملثم ؟

كنت بستان جراح

راية حمراء. . . .

منشور كفاح

حين صر الباب في بعض السجون

قبل ميلاد الصباح

وبلا رعشة هدب

قتلوني

قتلوني ذات يوم

يا أحبائي. . . ولكن

ظل مرفوعاً إلى الغرب

جبيني.

سميح القاسم

" الذي قتل في المنفى كتب لي "

" دخان البركان "

كان الوقت ظهراً حين دارت العربة التي تقلني مع مجموعة من الشباب يساراً، متوغلة في غابات تشابكت أشجارها الجرداء، جراء الإهمال وعدم الاهتمام، ثم سارت بنا ببطء في مسار ترابي منقوش بالحفر، التي هي أيضاً لا تجد من يقوم بردمها، لتسهل سير العربات التي تسير عليها طوال ساعات الليل والنهار. وما أن وصلنا حتى احتفى بنا مستقبلونا وقاموا بتسجيل معلوماتنا الشخصية، وأخذوا صورنا احتياطاً للمجهول.

بعد أن تناولت الغداء الجماعي، انزويت تحت شجرة بعيدة، وبدأت أتلذذ بملء رئتي بالهواء النقي الذي يحف بالأغصان العارية والعشب اليابس، وأتنصت على الصوت الذي يتردد بين لحظة وأخرى، جراء انسياب أجسام الزواحف من الثعابين السوداء والرقطاء بين العشب والأشواك التي تملأ المكان.

مكثت ساعة على هذه الحال، الى أن مر بقربي شاب يتجول في المكان، يمسك بيده عرقاً جافاً، يمده بشيء من الثقة أو ربما الوجاهة! ورد علي السلام. رددت عليه التحية ودعوته الى الجلوس ففعل، ثم سأل:

- شو الأخ جديد؟

أومأت بالإيجاب. فقال:

- أهلاً وسهلاً.

مزجها بتنهيدة بدأت أتكشف كنهها في تلك الليلة التي قضيتها وإياه نتجاذب أطراف الحديث الذي كان عبارة عن سرد لسيرة حياته منذ أن جاء الى هذه البقعة، وكان صبيا لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، وكان يومها لا يعرف الخوف، وقد مرت سبع سنين عليه وهو هنا انكسرت خلالها روحه، وتدمر ما بداخله، حتى صار عصبياً، ينفجر لأي سبب في وجه أي شخص يختلف وإياه على أي شيء، خصوصاً إذا كان هذا الشخص مسؤولاً.

بدا لي مروان شخصاً طيباً وشجاعاً ولا يخلو من النقاء، على رغم حدّته وخبثه مع من يثيرون حساسيته، وسريعاً وجدتني أقضي الكثير من وقتي معه، أتعرف على شخصيته , ومن خلاله على مسار تلك السنوات العاصفة التي مرت بهؤلاء الناس هنا، حيث اضطر دائماً أن يهدىء من روعه ومن ثورته، حفاظاً على لقمة عيشه، وعلى مرتبه آخر الشهر، الذي يرسله تباعاً الى أهله الذين هو معيلهم الوحيد.

ولأنه كان فتى طيباً فقد وجد في صديقاً، أخذ يفضفض له مكنوناته، إلى أن أخذ يقرأ لي رسالة كان قد كتبها منذ أشهر الى أمه، والدموع تفيض من عينيه، ومازال يحتفظ بها بين أوراقه الخاصة، وكانت الرسالة من الشهيد مروان، كل ما يرجوه فيها من أمه أن تسامحه وأن لا تبكيه وأن تنقل سلاماته الى أخوته جميعاً، وأن تعتز به لأنه قضى بطلاً:

- لكن لماذا تحتفظ بها؟

فيضحك للسؤال، ويجيب: كنت تقريباً أذهب الى هناك كل ليلة، وكأنني ذاهب الى عرس، أما الآن فكما ترى، فقد نخر الروماتزم عظامي.

- روماتزم؟ وأنت شاب!

- نعم لقد أصبحت كخرقة بالية لا يهتمون بي، وأنا كما ترى لا أفعل شيئاً سوى أن آكل وأن أتمشى، وأنتظر آخر الشهر. أما هم فلا يبدون أدنى استعداد لمعالجتي بسبب المصاريف! ولا يتذكرونني إلا عندما يفكرون في تنفيذ مهمة ما، طبعاً بسبب خبرتي في الطرق، لكنني أرفض، لذلك فأنا مهدد بالطرد.

- ولكن لماذا ترفض؟ هل تخشى الموت؟

- الموت! لقد رأيته بعيني عدة مرات، في معارك الجبل سقطت قذيفة أمامي وللحظة رأيت نعشاً قد تمدد أمامي، وأنا محشور فيه، وقد تناثرت أجزائي، ولم أفق من ذهولي إلا والقذيفة لم تنفجر. أما الآن فنعم، إنني أخشاه، لماذا نموت، أمن أجلهم ليأخذوا الرتب على حسابنا!

- ما هذا التشاؤم يا مروان؟

- تشاؤم؟ ولكن قل لي بربك، هل سمعت يوماً بأن مسؤولاً قد استشهد؟

- انهم لا يتقنون سوى التنظير علينا نحن المقاتلين!

هكذا استمر الحديث بيننا الى أن جاء دوره في الحراسة، فاستأذن وذهب، فيما بقيت أنا أفكر قليلاً في هذا الفتى، بعد فترة وجيزة وفي محاولة مني لإبعاد أجوائه المحبطة عن رأسي، نهضت الى المكتبة، وبدأت أتفحص عناوين الكتب المكدسة فيها، الى أن شدت انتباهي مذكرات خاصة كتبها معتقل من الداخل، فبدأت أتفحصها، حيث تملكتني الدهشة تماماً، حين عرفت أن المذكرات إنما كانت تتحدث عن ذلك الفتى الذي تركته يوماً غربي النهر، وكبر حيث كنت أكبر، وكنا كلانا نسير معاً دون ندري، فعدت الى البداية أقرأ المذكرات كلمة.. كلمة...

- 2 -

" رفاقي. . .

إن السلطة قد تشنقني وهذا ممكن، ولكنها إن فعلت فلن تميتني، فسأبقى حياً وأتحدى السلطة ولن أموت".

كانت تلك الكلمات المحفورة على جدران الزنزانة والموقعة باسم فارس المنصور، هي التي أشرت إليها. حين سألني يوسف إن كنت أعرف فارس أحمد عبد الله، المعتقل الذي أذاعت سلطات الاحتلال نبأ انتحاره قبل أسابيع.

- أعرفه؟ ربما! أعني الى حد ما.

- ماذا تقصد بـ الى حد ما؟

- أعني. . . دعني أفكر قليلاً

- ولكن ما هي حكايته؟

- حكايته!!

بدأت أتذكر فارس، ذلك الفتى كان يجوب أزقة المخيم، وكنت تراه أينما ذهبت يروح هناك، ويجيء هنا، وتحول الآن إلى خبر. مجرد خبر، يتردد على ألسنة الناس، منذ أن تقدمت المجموعة العسكرية الى داخل جنين، مصوبة بنادقها المعمرة بالرصاص الحي باتجاه بيت يقع في "الدخلة" الثالثة من يمين الشارع الرئيسي الذي يشق المخيم من اوله وحتى آخره، وما أن صارت على مدخل "الزاروب" حتى ضغط السائق فرامل العربة التي كانت تشق طريقها بسرعة فائقة، ثم قفز الجنود من داخلها، وطرقوا الباب، الذي جاءوا يقصدون أصحابه، وما أن انفتح الباب حتى أطلت من داخله امرأة في منتصف العمر، تضع على رأسها شالها القروي، وترتدي كعادة كل الأمهات في ذاك المخيم ثوبها المطرز بعروق الحرير.

- خير ماذا تريدون.

لم يجبها أحد من الجنود الذين اندفعوا الى داخل البيت منتشرين، كل واحد في ركن منه يبحثون عن أي شيء، ويلقون بكل ما تصل إليه أيديهم وأرجلهم، غير عابئين بنتيجة ما يحدثون من فوضى أو خسائر في الأواني والمقتنيات.

ثم بعد أن هدأوا قليلاً، قام الضابط الذي كان على رأس المجموعة باستجواب الأم.

- اسمك؟

- خيرية.

- أم فارس أحمد عبد الله المنصور؟

- أنا هي. هل من خدمة؟

أجابت المرأة بهدوء لكن على مضض.

- أنت هي إذاً من أرضعته، وعلمته أبجديات التخريب؟

- أرضعته؟ نعم أرضعته حب الوطن!

- هل تحبين ابنك؟ أقصد فارس؟

- طبعاً أحبه قد الدنيا كلها.

أجابت

- إذاً أنت المسؤولة عما حدث.

- وماذا حدث؟

- لا شيء. لا شيء أقصد لا أدري. ولكن المسؤول العسكري يريد أن تذهبوا إليه في مكتبه بمديرية الحاكمية العسكرية. ثم واصل حديثه قائلاً:

- هيا بنا.

جالت برأس المرأة الجالسة بين الجنود العديد من الأفكار والاحتمالات، حول مغزى اللقاء والهدف من هذا الاستدعاء. هل سيفرجون عنه؟ تساءلت لكنها سريعاً ما أبعدت بأسى مثل هذا الاحتمال، فما زالت قضيته ساخنة، والمعركة سجال بينه وبينهم، أم تراهم يريدون أن ألتقي به، حتى أؤثر عليه! إستبعدت هذا الاحتمال أيضاً، فقد جربوا قبل ذلك، ربما يكونون قد رقّوا لحالي! ولكن لماذا جاؤوا بالجنود؟ أم تراه اعتقال لي؟

لم تستطع أن تصل الى استنتاج معقول، فيما كانت السيارة تبتعد شيئاً فشيئاً عن الحارة التي توزع بين حناياها كبرياؤها، منذ رزقت بهذا الصبي الذي صار شاباً، تسألها عن أخباره كل الجارات وحتى صبايا ما كانت تعرف أسماءهن، فترقص طرباً لأنها أم لفتى مثار اهتمام الجميع، ولكنه محور حياتها ومثار اهتمامها هي بالذات أكثر من أي شخص آخر منذ اللحظة التي ولد فيها، وتذكرت حين جاءها "الطلق" ولم تكن قد أكملت عامها الأول في بيت أهل زوجها، كان عفريتا في بطنها، ولم يخطيء إحساسها رغم أنها كانت تحبل للمرة الأولى،من أن المولود سيكون ذكراً، عرفته من حركاته التي لا تهدأ في أحشائها.

كانت طوال فترة الحمل، تتمايل به، اعتزازاً بخصوبتها، وكأنها تحمل كنزاً تحت ثيابها.

في ذلك اليوم الربيعي الجميل شعرت به يود أن يخرج، كانت هي أيضاً تود ذلك، لكنها لم تحتمل الألم، فصارت تصرخ، حتى التمت عليها كل الجارات وفي المقدمة منهن حماتها وأخوات زوجها، وكل نساء البيت، كانت متيقنة سلفاً من أنها ستكسب المعركة، وبعد لحظات قليلة ستفاخر به "سلفاتها". تذكرت أيضاً أنه في تلك اللحظة التي ذهبوا فيها لإحضار القابلة، انزلق بسلاسة بالغة، ثم انفجر بالصراخ، وفي اللحظة التي وضعت يدها بين فخديه ونسيت كل آلامها، هدأ تماماً وخيل إليها انه يراها، ويرتاح كثيراً لها، حتى تخيلته كأنه يستطيع أن يتحدث إليها، ومنذ اللحظة الأولى لولادته أحبته حباً اعتقدت أنه طبيعي حتى أنجبت أخوته الآخرين.

وحين عاد أبوه في المساء، استقبلته النسوة بالزغاريد والسؤال التقليدي:

- ماذا نسميه؟

كادت أن تجيب وهي في فراشها: عيسى، لكن زوجها القادم إليها أجاب دون أن يفكر طويلاً:

- فارس

وقد أراد الرجل أن يحي ذكرى أخيه الذي ذهب في ليلة شتوية باردة، على ظهر حصانه متأبطاً بارودته، وما عاد!

ألقى الضابط التحية العسكرية، ونطق ببضع كلمات لم تفهمها المرأة، ثم خرج تاركاً إياها أمام رجل أشقر، اهتزت أركانها منذ اللحظة الأولى التي صارت فيها أمامه، وقبل أن تتعقد مشاعرها تجاهه أكثر من ذلك بادرها بالسؤال:

- اسمك؟

- خيرية

- بلدك؟

- جنين

- هل تعرفين فارس أحمد عبد الله؟

تلكأت قليلاً، لكنها انتبهت الى أنه يقصد، فارس منصور، ابنها، فأجابت:

- ابني؟

- آه يا أم فارس، شدي حيلك، لقد انتحر ابنك هذا الصباح!

لم تفهم ما قال الرجل، لكنها بدأت تشعر بأن الدنيا أخذت تلف بها، ولم تستطع أن تحدد ماذا تجيب أو ماذا تفعل. وهل هي في حالة الصحو، أم أنها تحلم، أم أنهم يعبثون بها.

- ابنك مات وعليكم أن تذهبوا غداً الى المستشفى لتلقوا عليه النظرة الأخيرة.

- ها . . . .!

وما عادت تتذكر شيئاً بعد ذلك.

ما أن شاع الخبر في المخيم، حتى هاجت الناس جميعاً، وأخذوا بالتوافد على أهل الميت وكان البعض يواسي والبعض الآخر يهنيء، وكانت بعض النسوة تطلق شيئاً من الزغاريد وكان كلما سأل أحدهم، ما الخبر يجيء الجواب، فارس. . . فارس المنصور استشهد في المعتقل.

- هذا يعني أنهم قتلوه.

يسأل أحد الشباب الذين جاؤوا لتوهم الى بيته.

فيجيب أخوه صالح.

- يقولون أنه انتحر.

- كيف يعني؟ ألم تصلكم منه رسالة قبل أيام؟

- بلى.

- وكيف كانت معنوياته؟

- عالية.

- وكيف لنا أن نتأكد؟

- لابد أن نراه.

- متى وأين وكيف؟

- علينا أن نحضره ونعرف كيف مات.

- في المشرحة.

- لكنهم قد لا يعطونا الجثة.

- اذاً لنتصل بالمحامية.

- أوافقك الرأي.

في الصباح الباكر توجه ثلاثتهم، الأم وابنتها سعاد وابنها صالح الى شارع بن غوريون في القدس، حيث يقع مكتب المحامية سارة اليعارز، واتفقوا معها على رفع مذكرة لاستلام الجثة، أفضوا لها بشكوكهم حول ملابسات موته، كما طالبوا بإدخال طبيب عربي الى المشرحة، لمعرفة الأسباب الحقيقية التي أدت للوفاة.

بعد أن حصلت لهم المحامية على المذكرة التي تسمح لهم باستلام الجثة شريطة أن لا يحضر مراسم الدفن أكثر من عشرة أشخاص من أقربائه، دونما أيه مراسيم، وأن يقوموا بنقلها الى المخيم ليلاً من المشرحة الى المقبرة، دونما غسلها أو الصلاة عليها، كما تقتضي الشريعة الإسلامية، فنحن بغنى عن أية مشاكل قد يثيرها المخربون، هكذا علق الحاكم وهو يوقع على المذكرة.

ذهبوا جميعاً إلى المشرحة في "أبو كبير"، يرافقهم الدكتور علي النجار، وهو طبيب عربي متخصص، وفي المستشفى كان المسؤول د. هيس بانتظارهم. وحين سألوه عن إمكانية رؤية المتوفي، قال لهم بأنه غير مفوض بالتنسيق معهم، كما أنه غير مسموح للطبيب الذي اختاروه بحضور التشريح، ولكنه على أية حال يمكنه أن يساعدهم بان يسمح لهم برؤية وجهه فقط.

لم تتمالك الأم أعصابها وسألته:

- ولكن كيف مات؟

- أجاب ببساطة واقتضاب.

- لقد انتحر!

- كيف؟

- شنق نفسه بخيط بطانية

أجاب.

- وكيف اكتشفتم الأمر.

سألت المحامية.

فأجاب

- أنه خلال وردية الشرطي المعتادة، دق باب الزنزانة على فارس، وحين لم يسمع ردا، فتح الباب فوجده معلقاً بحبل!

- وهل تعتقد أن ذلك صحيح؟

سألته مرة أخرى.

فأجاب

- إننا لا نشك إطلاقا بنزاهة الشرطة.

ما كان باستطاعتهم إلا أن يوافقوا، وحين تأكدوا من انه هو، قاموا بمرافقته ومجموعة من الشرطة العسكرية الى المخيم، حيث قاموا بدفنه في هدوء.

- 3 -

منذ أن بدأ التحقيق مع مأمون الشويكي، وكل المؤشرات كانت تشير الى أن أموراً كثيرة سيتم الكشف عنها، فالرجل الذي كان ينحدر من أصول كادحة، وكان يتمتع بمواصفات خاصة أهلته لأن يكون محل ثقتهم، بحيث أوكلوا إليه أخطر مهمة يمكن أن توكل لعربي.

وكانت المهمة هي تنظيم شبكة تجاوز عدد أفرادها الثمانين شخصاً مؤلفة من شباب وفتيات توزعوا على ساحات فعل القوى الوطنية في مناطق متعددة من الضفة الغربية، وكان على صلة مباشرة بقائد المنطقة الوسطى، الذي كان قد أقسم أنه خلال عام سيقضي على المخربين ليكون ممكناً بعد ذلك تنفيذ مشروع التقاسم الوظيفي وتثبيت روابط القرى.

ومأمون الشويكي هو نفسه صاحب "صالون الشرف" المعروف تماماً لكل صبايا جنين , بعد أن اشتهر في الفترة الأخيرة، برخص أسعاره وبنشاطه غير العادي، وإن كان مثيراً للريبة في أوساط النخبة ممن هم على صله بالقوى الوطنية، ولكن لم يستطع أحد أن يكشف شيئاً من أسراره ولا من نشاطاته الخفية، قبل أن تترك زينب تلك الورقة غداة انتحارها وتكشف فيها شيئاً من تلك الأسرار، وتدلهم على طرف الخيط الذي كان مربوطاً بمأمون بالذات.

كانت قصة زينب تتلخص باختصار، وكما ذكرتها هي في ورقتها, التي وجدت الى جانب جثتها الهامدة، كانت النافذة لكشف كل تلك الأسرار، التي بدأت تتكشف مع مسار التحقيق مع مأمون.

وكانت زينب قد ذهبت يوماً بناء على نصيحة إحدى زميلاتها في جامعة بير زيت، لتصفيف شعرها استعداداً لحضور خطبة بنت خالتها سلوى، الى صالون الشرف إياه المعروف بمهارته ورخصه لدى الجميع.

ذهبت زينب الى الصالون بمفردها، حيث وجدت بعضاً من الزبونات، الأمر الذي فرض عليها الانتظار، فجلست على أحد المقاعد تنتظر دورها، قتلت الوقت بتصفح عدد من المجلات النسائية الموضوعة على "الترابيزة" أمامها.

وبعد قليل قاموا بضيافتها بفنجان قهوة، أخذت ترتشف منه بلذة الى أن جاء دورها ولم تعرف زينب ما حدث لها بعد ذلك. الى أن طلبت للتحقيق، وهناك واجهها المحقق بصور تظهر فيها بأوضاع جنسية فاضحة مع أحد الشباب.

ثم كان أن هددها المحقق ببساطة بالفضيحة، إذا لم توافق على التعامل معهم، صعقت زينب في البداية، وهي العضو النشط في صفوف الحركة الوطنية، كيف يمكنها أن تتحول الى جاسوسة على رفاقها. وتذكرت اللحظة القاتلة، حين بدأت تشعر بدوار غريب بعد ربع ساعة من تناولها فنجان القهوة، لكنها كانت قد وقعت في المصيدة، ولم تدر ماذا تفعل، فطلبت من المحقق أن يمهلها يومين لتفكر فيهما.

واتخذت زينب قرارها دون أن تتحدث مع أحد في الموضوع، فكتبت الورقة التي ذكرت فيها الحادثة، وكشفت عن مأمون الظاهر معها في الصورة عارياً يمارس معها وهي مخدرة تماماً، ثم تناولت كل ما في صيدلية البيت من حبوب مختلفة.

لم يكن سهلاً على ماهر السعدي أن يدفع مأمون الى الكشف عما لديه، ولكنه بعد فترة وبسبب مهارته الفائقة والمجربة في التحقيق مع العملاء، استطاع أخيراً أن يقنعه بالاعتراف، والحقيقة أن مأمون بعد أن تأكد أنهم يملكون أدلة مادية واضحة على تورطه، لم يجد مخرجاً سوى الاعتراف، عساه يحفظ عليه حياته التي باتت مهددة تماماً، فكان أن بدأ في سرد حكايته معهم منذ بدايتها.

بدأ مأمون حياته العملية صبياً عند المعلم "أبو علي" صاحب المطعم القريب من مقر الحاكم العسكري، وقد كانت حركة المطعم جيدة، حيث كان يستفيد من الزبائن التي تراجع يومياً بالمئات المقر، وكان من زبائنه أيضاً الضباط الإسرائيليون أنفسم، الذين تعود أن يجيء إليهم ببعض ما يطلبون من ساندويتشات أو شاي أو ما شابه. وتطور الأمر الى انهم أصبحوا جميعاً يعرفون مأمون ويكلفونه بأن يحضر إليهم ما يحتاجون من سجائر وأحياناً كانوا يسألون عن بعض المراجعين إن كان يعرفهم، فيدلي إليهم بما لديه، هذا أبو يوسف عامل باطون من عرابه، هذا لم أره قبل ذلك، وذاك الأستاذ حامد معلم الجغرافيا في مدرسة حافظ إبراهيم في نابلس.

وكانت معرفة مأمون بالناس واسعة بحكم تنقله في أعمال عديدة وأماكن مختلفة من المنطقة وذات يوم طلب منه العقيد الياس أن يحضر إليه علبة "مالبورو" وحين عاد إليه بها ترك له الضابط ما تبقى من نقود اكرامية له، وطلب منه أن يجلس، بعد أن تحدث إليه في أمور لا رابط بينها، سأله عن سالم المحمود، شخص بهذا الاسم، ولم يكن مأمون يعرفه كما لم يكن قد سمع عنه قبل ذلك.

- إنه طالب في قسم الرياضيات السنة الثانية بجامعة النجاح، وهو من طمون بنابلس نريد أن نعرف عنه أكثر من ذلك، هل يمكنك أن تساعدنا ببعض المعلومات العائلية والشخصية يعني أخوته، أصحابه، هل هو متزوج، متفوق في الدراسة، أم منقطع عنها. أين يسكن... الخ، لم يتردد مأمون في الموافقة، وهكذا بدأ مشواره الطويل، الذي ما انتهى حتى اللحظة، التي أودعوه فيها السجن بعد أن بدأت شفاه الناس تتهامس شكوكاً حوله.

وكان أن طلب إليه العقيد يوماً أن يجيء إليه في الساعة الخامسة مساء بعد أن ينتهي الدوام الرسمي، لأنه يريده في أمر مهم، سيفتح أمامه المجال واسعاً الى النفوذ.

وفي الموعد المحدد ذهب إليه فوجد في مكتبه شاباً وفتاة، سرعان ما عرفه العقيد عليهما بانهما سيعملان معه في مهمة تعتبر على درجة من الأهمية، وبدأ يشرح لهم.

- عليكم باستئجار "محل" في أفضل مكان في وسط "جنين"، لا تهتموا للنقود، نريد أن نفتح صالوناً لتجميل السيدات، ستشرفون أنتم عليه، وبإمكانكم أن تبدأوا منذ اليوم وهكذا كانت حكايتهم مع الصالون، الذي شهد بدايات توريط العشرات من الفتيات والصبايا وكان التركيز على طالبات جامعتي النجاح وبير زيت. وقد تم تزويد الصالون من أجل ذلك بكاميرات الفيديو والفوتوغراف المثبتة بطريقة مخفية في صالة خلفية للصالون، لا يتم الكشف عنها لأي أحد، مزودة بسرير ومرايا , كانت أشبه بغرف الفنادق المشبوهة، التي تتم فيها العلاقات المحرمة.

تذكر زوجته، فصمت عن الكلام، وسرح بخياله بعيداً، الى اليوم الذي دخل عليها فيه وأغلق لأول مرة الباب عليهما. أما رفيقه فلم يشأ أن يقطع عليه خيالاته رغم تشوقه لمواصلة السير في مسار الحكاية. احبها بعد أن تعرف عليها في جامعة النجاح، تماماً كما كان قد تعرف فارس على رحاب، لكنه كان ينفرد بها في الكافيتيريا، ويتحدث وإياها طويلاً في كل شؤون الدنيا، حتى تآلفا.

اكتشف الآخرون سر هذه الألفة، قبل أن يفاتحها بمشاعره نحوها، وكان قد تعرف على موافقتها من كل كلمة كانت تنطق بها، من كل حركة، من كل موقف، من لهفتها الصادقة الحارة، حين يتأخر في المجيء عن الموعد.

مرت فترة كافية حتى تقدم لها، وسار بعد ذلك كل شيء بشكل هادئ وطبيعي، وكان قبلها قد عاش حياته مراهقاً تعرف الى العديد من الصبايا، يأخذ من كل واحدة كل ما يستطيع، حتى صارت له خبرة في هذا الشأن.

حتى عاهرات تل أبيب تعرى معهن، فصار يعرف تضاريس الفتاة قبل أن تنزع ثيابها ويعرف ما يدور بذهنها من نظرة عينيها.

كان فارس في الثالثة عشرة من عمره، حين عاد ابن خالته فؤاد من الخارج، بشهادته الجامعية، وبأشياء أخرى، لم يدرك كنهها. التمت العائلة في بيتهم، يباركون للعائد عودته ظافراً ميموناً، ويلومونه لأنه لم يبق هناك، يقبض الدنانير الوفيرة في نهاية كل شهر، ويبعث إليهم ببعضها، ممنين النفس أن ينالهم شيء من الهدايا في صيف كل عام.

لفترة طويلة يتذكر كيف كان يحاول أن يحرف الحديث الى أشياء أخرى.

- ما هي أحوالكم؟

- زي الزفت!

كانوا يجيبونه

- لكنكم. . . .

- نحن ننتظر الفرج من الله ومنكم.

وحين دارت الحرب، طافت السعادة وانفجرت في كل الأزقة، لحظات وينتهي كل الألم.

- أخيراً فكروا بوضع حد لمعاناتنا. كانوا يقولون.

توقف العمال عن الذهاب وراء الخط الأخضر ولجأ جميع السكان الى بيوتهم، لا أحد يفتح فمه، الجميع ينصت الى المذياع!

- لقد عبرت القوات المصرية قناة السويس ودمرت خط بارليف، والقوات السورية حررت القنيطرة.

- أيام ويصلون إلينا، الله أكبر ترتفع الحناجر، وتنتظر الأفئدة على أحر من الجمر، أيامها اختفى فؤاد فجأة. قالوا: انه كان مكلفاً بمهمة خلف خطوط العدو، نحن أيضاً مشاركون في الحرب، عمليات عديدة قام بها الفدائيون: صاح توفيق.

انتهت الحرب، وعادت الأحوال كما كانت عليه، مع مزيد من الأسى والإحباط، فكر المصريون بأنفسهم، وربما عجزوا عن أن يفعلوا شيئاً لنا، بعد أن حاولوا، لكن لماذا وافقوا على الحكم الذاتي لنا؟ ولماذا لا نريده نحن؟ لماذا لا يسألوننا رأينا؟ حتى نختلف , لماذا؟

بعد أن اختفى فؤاد، صار الفتى بينه وبين نفسه، لا يجد مبرراً مقنعاً لينكب على الدراسة بحماسته المعهودة، ماذا تنفعنا الشهادات هنا، والجميع يعمل في مطاعم وورش البناء في إسرائيل. لكن أمه كانت تلح عليه أن ينجح في مدرسته، وكان يحبها ويثق بها، ولا يوجد ما يضر في ذلك. بعد أن يعود الى البيت، يجد صينية الترمس في انتظاره فيحملها ويذهب الى الدوار، ينادي بأعلى صوته، ويرش الماء البارد على حبات الترمس لتبقى طرية، يضع في قمة تل الترمس وردة لتغري الزبائن. وكان الفتى يذوب في ثيابه إذا ما مر به أحد زملائه في المدرسة، فيناوله عشر ليرات، مقابل كوب من الترمس ومازالت تلك الحادثة تهز كيانه كلما تذكرها!

ففي ذات يوم ربيعي، وكان أن وقف ببضاعته أمام باب السينما، ينتظر خروج روادها، مر به جنديان، قهقه أحدهما ثم قال:

- ماذا تفعل يا ولد؟

وهش عليه بهراوته.

- أبيع ترمس.

أجاب.

- هل أنت مخرب؟

- ماذا؟ كيف؟ لا.

ثم طلب الجندي منه أن يعطيه بعشر ليرات، فلف ورقة على شكل قرطاس وملأه بحبات الترمس الصفراء الطرية وزاد من الكيل، حتى امتلأ القرطاس عن آخره. مد الجندي هراوته واطار القرطاس من يده.

- غيره! هيا! أريد واحداً آخر.

فعل ما أمر به وكرر الجندي فعلته. فتدخل الآخر. وركل الصينية بقدمه قائلا:

- ما هذا يا مئير؟ أنضيع وقتنا هنا؟ هيا بنا.

عاد الفتى منكسر الخاطر، وشعر بالعجز لأن أباه لا يستطيع أن يؤدب الجنود على فعلتهم. آه لو أرى فؤاد، لأخبرته بما حدث، وكان من المؤكد أن يذهب إلى هنا، ويقوم بأداء الواجب لمائير هذا ابن الفاعلة!

- لكن أين أنت يا فؤاد؟

كان فارس فتى خياليا، ويتمتع بأخلاق استثنائية، وفي أحيان كثيرة لم أكن أفهم العديد من مواقفه، كنا في الإعدادية نحضر للمترك، وكان متفوقاً كعادته في الدراسة، لدرجة أن الجميع كانوا يتوقعون أن يكون من العشرة الأوائل على مستوى الضفة. وكان كفتاة عذراء، خجولاً، من البيت إلى المدرسة، وبالعكس، متصوفاً إلى حد ما في محراب الدراسة وكنا قد بدأنا لتونا ندخل في حالة البلوغ، وما يتبعها من ظاهرة التودد للجنس الآخر حيث بدأت "القسدرة" في الشارع المنتهي بمدرسة البنات الإعدادية المجاورة لمدرستنا تستحوذ على جل اهتمامنا، وبدأ كل واحد منا يعلق بالنظرة والابتسامة فتاته الخاصة وأحياناً يتطور الأمر إلى الرسائل، "وأخو أخته" الذي يحظى بمشوار شاعري على أطراف البلد، أما هو وقد شاعت شهرته حتى وصلت إلى إعدادية جاراتنا. حيث بدا للعديد منهن فارساً يتنافسن عليه، وربما كن يتراهنّ فيما بينهن على من يمكنها أن "تعلقه" إلى أن استطاعت سوسن وكانت على قدر من الجمال، أن تصادق أخته سعاد، عساها من خلالها تستطيع أن تصل إليه.

في يوم من الأيام استعارت منها كتاب العلوم الخاص به، وكان هذا الكتاب يحتوي في جزئه الأخير على المادة التي تشرح تشريحياً الأعضاء الجنسية للجنسين.

وما أن وصل الكتاب لها، حتى تخاطفته الفتيات آملات في أن يجدن ما قد يكون قد "خربش" عليه من تعليقات، تفصح عما بداخله من غرائز.

وبعد أن ردت إليه الكتاب دست فيه رسالة خجولة، تعرض عليه فيها أن تصبح صديقته , لكنه رد عليها برسالة تربوية يدعوها فيها إلى أن تهتم بدروسها!

في عطلة المدارس الصيفية، كان على فارس أن يحسب ساعات يومه بدقة، فيوزعها إلى "ورديات" عمل، ينهض مبكراً ليحمل كعكات السمسم والزعتر وينطلق إلى المجمع، حيث يبيعها إلى العاملين الذين ينطلقون من هناك إلى ورشات البناء وراء حدود الخط الأخضر، حتى إذا ما انتهى من بيعها، توجه إلى أبي علي الفران وقام بتوزيع "مفارش" الخبز إلى المطاعم، وفي المساء يذهب بعربة الترمس وينتظر رواد السينما.

وفي ذات يوم بينما نهض مبكراً ولم يصح تماماً بعد، ذهب متثائباً إلى المرحاض القابع في طرف البيت بجوار البوابة الخارجية، فكان أن رأى ورقة مدسوسة تحت حافة البوابة الخارجية انحنى بغريزية كاملة وتناول الورقة، ثم واصل مشواره إلى المرحاض، وبعد أن قضى حاجته تأمل الورقة فكانت من تلك الأوراق السرية الموقعة من الفدائيين، يعلنون فيها عن وقوع اشتباك مسلح بين رجال المقاومة وقوات الاحتلال، نتج عنه سقوط العديد من القتلى والجرحى في صفوف المحتلين، وسقوط شهيد، ازدادت دقات قلبه، فقد خاله للوهلة الأولى ابن خالته فؤاد، ولكنه هدأ حين قرأ الاسم وكان شخصاً آخر.

في ذلك اليوم لم يستطع فارس أن يجمع قروشه المعتادة، فقد فرضت سلطات الاحتلال الطوق على البلدة، وطلب جنودها عبر مكبرات الصوت التي دارت بسيارات اللاندروفر كافة الحارات والأزقة، من كافة الرجال من سن عشرة وحتى الستين أن يخرجوا إلى الساحة العامة، ثم أجرت تحقيقاً مهيناً مع الجميع، في محاولة للكشف عمن هم وراء تلك الأوراق السرية، وقامت بتفتيش البيوت بحثاً عن آلة طابعة، وحجزت كل المشتبه بهم، ولكن المناشير ظهرت مرة أخرى في الليلة التالية، فاضطرت سلطات الاحتلال إلى الأفراج عن الجميع.

ما أن فتحت المدارس حتى التحقنا بالمدرسة الثانوية، وهناك التقينا بطلاب جدد من كل القرى التابعة لمركز المدينة، وقد بدأنا لتونا نكتشف الحياة الصاخبة التي تدور حولنا، تتجاوز كثيراً علاقتنا المحدودة بالكتاب المدرسي، وبدأنا نتساءل عن سر تزوير بعض الحقائق المتعلقة بتاريخ وجغرافيا فلسطين، كنا نرى الجنود حولنا كل لحظة، ما أن نقترب من بوابة المدرسة، حتى نشعر أننا قد اقتربنا من ثكنة عسكرية، حيث لابد من التفتيش، نفتح حقائبنا للجنود، فيبحثون عن أوراق ممنوعة، يفتشون جيوبنا، وما أن نبتعد عنهم، حتى يبدأ فارس بإطلاق نكاته.

- كدت "أفرط" من الضحك والجندي يقوم بتفتيش جيوبي. ابن اللعينة، جيوبنا فارغة ويداه ما أن تلمسان لحمي حتى أكاد أنفجر بالضحك.

بعد أيام تعرفنا على زميل من بعيد كان اسمه توفيق، دار بيننا نقاش، حول حصة الجغرافيا، حيث لأول مرة، دار في تلك الحصة على لسان الأستاذ صالح اسم إسرائيل -يقصد فلسطين- يا لهم من أوغاد حتى الضفة والقطاع يسمونها يهودا والسامرة! صاح توفيق ثم تابع قائلاً: لم يبق علينا يا شباب إلا أن "نبروز" صور ابن غوريون ونضعها في صدور بيوتنا باعتباره بطل التحرير القومي لبلادنا من سلطات الانتداب البريطاني!

كان فارس ينصت باهتمام، ولا يفعل شيئاً سوى أن يبتسم، ويحرك ما بين حاجبيه مندهشاً.

في تلك الأثناء بدأت تتشكل مجموعة من الأصدقاء الأربعة، الذين سيشقون طريقهم بعد ذلك معاً، باستثناء فارس، ولأسباب خارجة عن إرادته، بل عن إرادتهم جميعاً.

وتطورت فيما بينهم حالة الانسجام الى مدايات متقدمة، حتى انهم في ليلة كانوا يسهرون عند فايز، فاقترح عليهم توفيق مجيباً على سؤال مؤيد، حول الأغنية التي يحبها كل واحد منهم علّه يصل الى قاسم مشترك، فيضعها في جهاز التسجيل، في محاولة منه لوضع حاجز أمني بين الآراء والآراء المضادة التي بدأت منذ العصر ولا يمكن لها أن تنتهي مع طلوع الفجر إذا استمر الحال هكذا. وكان الأقتراح يتلخص في أن يكتب كل واحد إجابته في ورقة، حتى لا يتأثر بذوق آخر، وكانت المفاجأة أن كانت الإجابات الأربعة، عبارة عن إجابة واحدة وهي -أغنية فيروز "خبطة قدمكن ع الأرض هدارة".

في صباح اليوم التالي بحث مؤيد عن فارس حتى التقاه، وكان ذلك مع بداية قرع جرس الاستراحة بين حصص اليوم المدرسي، حيث طلب منه على عجل أن يحضر حقيبته ويلحق به بعد أن يقفز من على السور، عند بقالة "أم نوال" المجاورة. وما أن فعل فارس حتى وجد رفاقه الثلاثة في انتظاره، فساروا جميعاً على عجل باتجاه المخيم.

سأل فارس

فأجابه توفيق

- اليوم يصادف يوم الأرض، ونحن متوجهون الى مجمع المدارس الابتدائية والإعدادية في المخيم، لنقوم بإخراجهم في مظاهرة.

كان يمكن لذلك اليوم أن يكون يوماً تاريخياً بالنسبة لهم، حيث كان سيشهد أول فعل قيادي يقومون بالتخطيط والتنفيذ له، رغم أن ذلك التخطيط كان مرتجلاً ومنسجماً مع تجربتهم وقرويتهم، لولا أنهم وجدوا المخيم يضج بالجنود، الذين احتاطوا لأمثالهم في مثل ذاك اليوم فانتهى الأمر وعادوا ولم يفعلوا شيئاً، ترافقهم خيبة الأمل.

في المساء وبينما هم يتناقشون كالعادة، جرهم الحديث الى موضوع الجن والعفاريت، وكانت رؤوسهم قد امتلأت بقصصها طوال أيام صباهم، ولكنهم بدأوا يحتجون على مثل هذه الأفكار ويعتبرونها بالية ورجعية، وكان يقال لهم إن العفاريت والأرواح إنما تسكن المقابر والأماكن المهجورة. آثار أحدهم فكرة أن يختبروا هذه الأفكار حتى يثبتوا لأنفسهم زيفها.

بأن يذهبوا لتوهم الى المقبرة القابعة في طرف المخيم، لحظة وكانوا جميعاً قد هبوا وقوفاً وقبل أن يتوجهوا الى الطريق المؤدي للمقبرة، عرجوا على بقالة "أبو الياس" واشتروا أربعة زجاجات من البيرة مع بعض المملحات وأكملوا سيرهم الى حيث مقام أبو يوسف الراعي فافترشوا ما بين الشاهدين، وأمضوا أكثر من ساعتين "غبوا" فيها ما بداخل الزجاجات، ثم عادوا فرحين، حيث توجه كل منهم الى بيته، وناموا ولم يحلم واحد منهم بأية أحلام مزعجة.

في يوم ما بعد ذلك، وفي سياق خطتهم بالتعرف على حياة الكادحين من أبناء شعبهم، انتبهوا الى ظاهرة تردد العمال العرب، بعد انتهاء يوم عملهم الشاق، وبعد أن يقبضوا يوميتهم على بيوت الدعارة في تل أبيب. فتوصلوا الى قرار بأن يضربوا عصفورين بحجر واحد أن يجربوا أكل التفاحة المحرمة، وان يتعرفوا على الجنس بممارسته بعد أن بدأت المراهقة تفرض نفسها عليهم، في مجتمع محافظ، حيث ليس أسهل من التعاطي مع المومسات أسلوباً لاكتشاف أسراره.

توجهوا قبل مغيب الشمس الى تل ابيب ولم يبحثوا طويلاً، حتى عثروا على مبتغاهم فاختار كل واحد منهم امرأة لم يتردد كثيراً أمام مواصفاتها باستثناء فارس، الذي اختارها سمراء، شرقية الملامح، وما أن أغلق الباب عليهما، حتى بدأ العرق ينز من كل جزء من كيانه، ولأن المرأة تعرف عملها وتريد له أن ينتهي بسرعة، فقد تجردت من ملابسها في لحظة، بحلق فارس في الجسد الذي تعرى بسرعة البرق أمامه. وتخيل آلاف الرجال الذين حرثوا تلك التضاريس المشاع. تردد، سحبته المرأة من يده، وهمت بفك أزرار بنطاله ولأنه أصبح على بعد سنتمترات منها، راع انتباهه شعر عانتها وإبطيها والرائحة التي أفرزها واختلطت بعرق جسدها الذي لا يكل عن العمل، شعر بالقرف، فالقى بالنقود بين فخذيها، المنفرجين، وخرج مسرعاً، كأنه يهرب من دورية تلاحقه، ولم تهدأ أنفاسه إلا بعد أن أيقن أنه أصبح في مأمن منها، ثم بقي فترة بانتظار أصدقائه، حيث دارت في ذهنه التحليلات الممكنة والمنطقية حول طبيعة هذه المرأة، فتوصل إلى أنها قد تكون مجندة أو احتياط، وفي كل الأحوال هي حلقة من سلسلة تهدف إلى نهب عرق هؤلاء العمال المساكين، وافساد أخلاقهم، وربما توريطهم بأكثر من ذلك... إنها واحدة منهم تقوم بدورها المرسوم لها بدقة، إنها كرجل الدورية، كالمحقق، كالمخبر، كالشرطي، حاولت اصطياده... علينا أن نكون حذرين منهم جميعاً، ومن كل فخاخهم إذا كان لابد لنا أن نشب عن الطوق ونقوم بفعل ما يمكن أن ينجح... دارت برأسه مثل هذه الأفكار، وما زالت حتى جاء أصدقاؤه غارقين بالضحك.

للمرة الثانية خلال ثلاثة أيام، أصابته قشعريرة لا يمكن وصفها، أحس بكل عضلة في جسمه ترتعش، وكأن عظامه قد صارت هيكلاً من الثلج، أو كأن جهازه العصبي قد اختل، والحقيقة أنه لابد أن يكون كذلك، بعد أن عاش في جهنم لحظات كان الموت فيها راحة ما بعده راحة. حين جاء المراسل يقوده الى غرفة التحقيق، تناوله الضابط فور وصوله وقام بحشره في كوة المكتب المنتصب في طرف

الغرفة، بعد أن قاموا بإلصاق ثلاثة مدفآت كهربائية، كل واحدة لصق كل جدار معدني من جدران المكتب، أما هو فبعد أن تم حشره في الكوة، قاموا بدفع المكتب باتجاه الحائط الذي شكل بذلك الجدار الرابع، كانت سنتمترات قليلة تفصله عن جدران الصفيح التي التهبت بعد أن ضغط الضابط على الزر الكهربائي، لحظات كأنها دهر من العذاب، وليس هناك سوى رائحة الشياط، واللحم الآدمي يحترق، إنها جهنم، وكانوا هم سدنة الشيطان، وقد فتحوا باب الحساب. مشاعر عصية على الوصف كانت تلك التي انتابته، لكنه لا يذكر شيئاً سوى انهم منعوا عنه راحة الموت. بعد أن أقفلوا دائرة الكهرباء، انتابته حالة التجميد، وها هي للمرة الثانية وفي اللحظة إياها، في الموعد نفسه تنتابه القشعريرة.

واساه صاحبه فشعر بشيء من الراحة، ولم يلبث أن ارتاحت أعصابه التي انشدت قبل قليل، فتعرق وابتسم وقال:

- نكمل غداً فالآن لابد لنا أن ننام.

- 7 -

مع اقتراب تباشير الصباح، تهدلت نسمات الهواء الباردة المعطرة بزهر الليمون،وهبت من البعيد، من الساحل ذي المياه الزرقاء الدافئة، حتى إذا وصلت قمة التلة، التي يتكيء عليها المخيم، ذخرا لشيخوخته، توزعت بين الحارات والأزقة، فأنعشت الصدور التي هدها العمل والقهر وطول الانتظار، فصاحت الديكة، ونهضت النسوة يضعن أباريق الشاي على بوابير الكاز. ثم يتوجهن لتوهن الى الرجال يوقظونهم، ليتوجهوا بدورهم الى حيث يمكن لهم أن يعودوا بفتات الخبز الذي يضمن لهم أن يستمروا في حياة مهددة في كل لحظة لأنه يمكن لها أن تنتهي ببساطة وبألف وسيلة وأخرى.

مع أول رشفة من كأس الشاي الساخنة، زعقت مكبرات الصوت تعلن فرض التجول.

- يا صبّاح يا عليم.

صاح أبو محمد.

فعلقت زوجته في اللحظة التي كانت تنتقل بنظرها بين أكوام اللحم التي تناثرت في أرجاء المنامة.

- اليوم أيضاً لن تخرج للعمل! كيف لنا أن نعيش في ظل حظر التجول؟

أجابها زوجها، وعاد الى فراشه مسترخياً.

عند الظهر تم فك حظر التجول لمدة ساعتين، حتى يتمكن الأهالي من قضاء احتياجاتهم من السوق. حيث ما لبث الجميع أن اكتشفوا سبب الحظر، بعد أن قرأ كل واحد المنشور الذي دس من تحت عقب باب داره، وفيه تدعو القيادة الوطنية جميع المواطنين الى الخروج بمسيرة الى قبر الشهيد فارس، الذي اغتالته سلطات الاحتلال في أقبية زنازينها.

بعد قليل كانت الناس تتجمع في المقبرة تستوضح ملابسات الأمر من أهل القتيل، وما هي إلا لحظات حتى كان أهل المخيم جميعاً يحتشدون في المقبرة.

تعالت الهمهمات، ثم انطلقت الزغاريد والهتافات الحارة.

- الموت للقتلة!

ثم سارت الجموع وهي تنشد:

- يا أم الشهيد وزغردي.

كل الشباب ولادك.

بالروح بالدم نفديك يا شهيد.

ما أن خرجت المسيرة من محيط المقبرة باتجاه الشارع العام في طريقها الى بيت أم فارس حتى هجم الجنود المسلحون بالهراوات، ينهالون بها بشكل عشوائي على كل صاحب نصيب، وهكذا تفرق الحشد، فيما وصلت مجموعات قليلة منه الى البيت المثكول بفارسه القتيل!

- قلبي معك يا أختي.

- لقد عاش شهماً ومات بطلاً.

- لك أن تفخري بمن ولدت.

بهذه الجمل كانت النسوة يعبرن عن تضامنهن مع أم الشهيد، بينما بدأ الشباب من أقرباء فارس وأصدقائه، بإحضار الكراسي من عند الجيران، حتى تستطيع الحشود المعزية من الجلوس عليها، أما علي أخوه الأصغر فقد ذهب الى بيت "أبو حسين" فأحضر جهاز التسجيل وضغط على الزر الذي فتح المدى للشريط أن ينطلق عالياً:

- بالأحمر كفناه

- بالأبيض كفناه

- بالأخضر كفناه

- بالأسود كفناه

سألت أم محمد جارتها أم فارس

- ماذا فعلتم بخصوص القضية

- لقد كلفنا المحامية بمتابعة الموضوع

أجابت جارتها.

لم تكن حياتها الزوجية لتعيقها عن نشاطها، فزوجها أغلب الوقت خارج البيت، يتابع مهماته بنشاط وحيوية القائد الحقيقي الذي يضحي بلذاته الخاصة في سبيل الوطن، وإضافة إلى أنه تقدمي يؤمن تماماً بالمساواة بين الرجل والمرأة، لذلك فهو يتفهم تماماً حركتها خارج البيت، بما في ذلك تأخرّها في المساء، وأكثر من ذلك يشجعها، وما زالت وبعد عامين من زواجهما في نظره تلك الفتاة التي أسرته بحيويتها ونشاطها الطلابي، يوم تعرف عليها وكانت معركة الاتحاد الطلابي على أوجها وكانت واحدة من أسباب نجاح القائمة الوطنية.

أما وقد صار زوجها معتقلاً، فما كان عليها إلا أن تنتقل والصغيرة "شروق" الى بيت أهلها، حيث واجهت معيقاً لحركتها تمثل بأخيها حسن الذي بدأ باعتباره رجل البيت بمحاصرتها كلما خرجت من البيت بأسئلته التي تحاصرها، ولم يسمح لها أن تخرج في ذلك المساء، فقد كانت الساعة قد تجاوزت السابعة، وحين سألها الياس عن عدم حضورها أخبرته عن ظروفها.

- لا بأس.

أجابها وببساطة تابع:

- موعدنا بعد غد الساعة العاشرة مساء.

في صباح اليوم التالي، لوح الزبون بيده الى سائق التاكسي الذي توقف للراكب، الذي أخبره عن وجهته، بعد أن جلس على المقعد الأمامي المجاور للسائق، الذي كان من عادته أن يتوقف في تلك الأثناء أمام دكان "أبي علي" القابع على مدخل البلدة، ليتناول علبة سجائره اليومية.

وبعد أن تابع السائق حركته على الطريق العام، مد الراكب يده الى "تابلوه" السيارة وفتح باب الدرج المندس في جوفها، وبحركة مباغتة أخرج المسدس الذي كان قد دسّه لحظة توقف السائق وتناوله علبة السجائر من دكان أبي علي، وصاح:

- ما هذا؟
انتابت السائق حسن الدهشة، فضاعت الكلمات في حلقة.

- نستطيع أن نسوي الموضوع، ما رأيك؟
وتابع الحديث الذي كان من طرف واحد، مصدره رجل "الشين بيت" الذي كان يبدو لتوه زبوناً عادياً لدى السائق حسن.

- هل نذهب الى الحاكم العسكري؟ صمت لحظة ثم تابع.

- لا لا بلاش 10-15 سنة سجن، يمكن أن نسوي الموضوع.

- دخيلك، شو بتأمر.

قال السائق في المرة الأولى التي فتح فمه فيها.

- بالتعامل معنا!

أجاب "الزبون" بكل بساطة.

ما أن صارت السيارة التي تقودها امرأة شقراء في أربعينيات العمر في مدخل المخيم حتى تحلّق حولها الصبية، يتفحصون هيكلها بأصابعهم الغضة، ويتصايحون. ثم رافقوها مهرولين، بينما كانت السيارة تتدحرج ببطء خوف أن تدهس أحدهم، الى أن توقفت أمام بيت في الدخلة الثالثة من الشارع الرئيسي للمخيم، كان رقمه23.

نهضت سونا لفتح الباب بعد أن سمعت الدقات المهذبة التي داعبته.

- إنها الأستاذة سارة يما.

- يا ألف أهلا وسهلا، يعني معقول كان لازم تتعبي نفسك وتشرفينا في بيتنا الذي يعني ليس قد المقام، تفضلي، تفضلي.

سارت أمامها المرأة التي وضعت على رأسها شالاً أسود ألقى عليها مسحة من الجاذبية ترافقت وملامح الكبرياء التي تغطي سحنتها، وما أن نظرت الى ضيفتها، حتى فرت الدموع من عينيها.

- الشاي يا سونا.

وتابعت.

- ها خبرينا شو الأخبار.

- مدام أم فارس بصراحة القضية ليست سهلة، لكنني من جهتي أقوم باللازم، واليوم سجلت القضية لدى المحكمة العسكرية، وقد حددوا يوم الثلاثاء بعد القادم للنطق بالحكم.

تململت أم فارس في جلستها، وتأملت المرأة الشقراء ثم قالت:

- الله يخليلنا إياك، يعني ما قصرت.

فأجابت الضيفة:

- أريد أن تحدثيني بصراحة عن أية معلومات قد تفيد القضية، حدثيني عنه كيف كانت معنوياته، حين كنت تلتقيه، بماذا كان يحدثك، هل لديكم رسائل منه، أية أوراق قد تفيد.

الحديث عن الفارس الذي صار تحت التراب يثير في الأم شجوناً لا حصر لها، لكنها أجابت بثقة:

- كانت معنوياته عالية ولم يتحدث أبداً إلا عن الصمود وعن المستقبل، خذي إقرأي رسائله التي كان يرسل بها إلينا، وآخرها هذه.

وناولتها الرسالة.

همّت الضيفة بالنهوض، فأجلستها أم فارس قائلة:

- الشاي لابد أن تشربي الشاي.

ثم توسلت إليها أن تمكث عندهم لتناول طعام الغداء، حتى يكون بينهم عيش وملح، فاعتذرت الشقراء بأدب، وفي تلك اللحظة. انفتح باب الدار ودخل علي الذي ألقى التحية، وتوجه الى جهاز التسجيل، وضغط على الزر فلعلع الجهاز.

- أنا يا أخي آمنت بالشعب المضيع والمكبل.

طلبت الأستاذة من أم فارس ضرورة توفير أجواء الهدوء حتى يتم الأمر على أفضل صورة، فطمأنتها مضيفتها، ومن ثم سألتها عن مصاريف القضية فأجابت.

- لا أدري بالضبط، فهذا يعتمد على تطورها، لكن حتى الآن نحن بحاجة الى خمسة آلاف شيكل رسوم التسجيل.

ضربت المرأة المضيفة صدرها بقبضة يدها قائلة:

- من أين لنا؟ يعني موت وخراب ديار.

ثم تداركت الأمر فقالت:

- لا عليك سنتدبر أمرنا.

تدخل علي قائلاً:

- أنا لا أوافق على هذا الأمر ولا أؤمن بجدوى كل هذا...

وقبل أن يكمل، نهرته أمه قائلة:

- ومن طلب منك رأيك، اسكت يا ولد.

في تلك اللحظة دخلت سونا بصينية الشاي، فتناولت الشقراء كوباً ورشفت منه. ثم نهضت وغادرت المكان.

ذات مساء شعر بشيء من الملل، تناول رواية كان قد بدأ بقراءتها منذ ثلاثة أيام، بدأ بالقراءة، لكنه اكتشف أن ذهنه شارد، أقفلها ثم أعادها مكانها. بعد قليل خرج وأخذ باب الدار بيده، ثم سار بغريزته المعتادة الخمسمائة متر، ضغط على جرس الباب أطلت عليه البنت التي رآها تكبر عاماً بعد عام حتى صارت صبية.

- فايز هون؟

- لا خرج.

- شكراً.

- واصل مسيرة مائة متر أخرى، دق الباب.

- مؤيد هون؟

- لا خرج.

- شكراً.

تابع سيره مستقلاً "السرفيس" إلى مركز المدينة.

دق عدة مرات على الباب، لم يجبه أحد.

فأيقن ساعتها، أنهم قد تجمعوا معاً، فواصل سيره الى مقهى الشباب، فصعد الدرج حيث رآهم في الزاوية التي اعتادوا الجلوس إليها، حياهم وسحب كرسياً وجلس:

- أهلاً أبو الفوارس.

صاح مؤيد.

وتواصل الحديث الذي ما لبث أن صار همساً، وتوفيق يواصل السعال الى أن قال:

- يا شباب علمت أن هناك عملاً تطوعياً يوم الجمعة، حيث سيتوجه المشاركون الى القرى المجاورة لقطف ثمار الزيتون، ما رأيكم لو نشارك؟

كان العرض بالنسبة لهم مغامرة جديدة على طريق الفعل الوطني. ومناسبة للانخراط في

صفوف الجماهير، فلم يترددوا بالموافقة.

وفي صباح يوم الجمعة وتحديداً في الساعة السادسة صباحاً.. كانوا كغيرهم من الشباب الكثيرين الذين تجمعوا أمام دار البلدية، جاهزين تماماً للتجربة. وبعد لحظات كانوا في داخل الحافلات التي انطلقت بهم الى القرى المجاورة. تعرفوا يومها على العديد من الشباب , فوجئوا ببعض زملائهم في المدرسة، وما وسعت الدنيا فارساً لحظة تربع تحت شجرة الزيتون مع حلقة من الشباب، يكسر رؤوس البصل بقبضة يده، ويشارك فايز والآخرين أكل الزعتر والزيت مع خبز الطابون، وفي نهاية اليوم اصطف الفلاحون لتوديعهم بالقبلات والصدور الدافئة.

بعد ذلك بأيام اتصل بهم أكثر من شاب من أولئك الذين سبق لهم أن اعتقلوا، وأمضوا شيئاً في معتقلات الاحتلال، يعرض كل منهم عليهم تنظيمه. لم يدر فارس حقيقة رد أصحابه إلا أنه تردد، ولم يوافق.

- ليس أوانه.

قال في نفسه.

- بعد الثانوية ممكن.

لكن في حقيقة نفسه، شعر أنه صار وطنياً ومحسوباً على كل هؤلاء.

- 11 -

مع إشعاعات الصباح الأولى أصحو على أصوات جلبتهم التي تعم المكان، دائماً مع هذه الجلبة تبدأ رحلة الألم اليومي، ففي الليل على الرغم من مداهمات التحقيق المفاجئة تبقى هنالك فرصة لأن تسلم نفسك لعالم الأحلام، رغم يقيني أن جعبتهم ما زالت تحتوي على العديد من أساليب التنكيل التي لم يستخدموها بعد، وهي كافية لأن تحرمني من لحظات الراحة تلك التي مازلت أحصل عليها الآن في فترات الليل.

يأتون إلينا بطعام الإفطار الذي كان عبارة عن ثلاث حبات من الزيتون وبيضة لكل واحد مع كوب من الشاي. أتناول وجبتي وأبدأ على أحر من الجمر أنتظر أن يأتيني المراسل في أية لحظة مفاجئاً قائلاً:

- أنت! هيا.

لم يطل انتظاري في ذلك اليوم وجدتني أنساق كخيال ظل وراء ذلك الرجل الذي يشعرك دوماً أنه على قدر من السلطة، ورغم أنه ليس إلا مراسل! كلهم يمارسون سلطاتهم المفترضة ضدك.

ما أن تدخل الى غرفة التحقيق حتى يتناولك المحقق بقبضة يد من حديد تنهال على وجهك.

- يا ابن الكلب، من هو مسئولك؟ اجب.

يصيح بأعلى صوته بينما يده تنهال على وجهك مرة أخرى فتطرحك أرضاً.

- ليس لي مسؤول!

تجيب.

- آه يعني إنك تعمل لوحدك؟

يسأل.

- لا لست أعمل مع أحد.

- يا حيوان ستعترف إن عاجلاً أم عاجلاً.

ثم يسحبك من قبة قميصك الى الحمام، ويدفعك بمساعدة وحشين كانا في انتظارك الى تحت "الدوش" فتندفع المياه كأنها تنقذف من خرطوم مياه إطفاء الحرائق، باردة كالثلج، حتى تبتل وتصبح كطائر صغير غرق لتوه في بركة من الماء. ترتجف كل أجزاء جسدك من البرد. يوقفون الماء لحظة، ثم يفتحون الماء الساخن، تتساقط القطرات كأنها جمرات تلسع أجزاءك، وحين يشتد تدفق الماء، تشعر كأن خرطوماً من اللهب يتجه صوبك، يلتهب لحمك تحت الجلد، تتصبب عرقاً وحريقاً، ويجف حلقك. نصف ساعة مرت وفتحتا "الدوش" تتناوبان قذف كرات الثلج وجمرات النار على كل أنحاء جسدك

كأنك في جهنم. بدأت أعصابك تفر منك، وأحاسيسك تتبلد، تنتهي وجبه التعذيب لذلك اليوم، فيقودك المراسل ايابا الى غرفتك. إرهاق عنيف ينتابك حتى لكأنك تشعر أن أعضاءك قد تفككت من مفاصلها، وأصبحت كومة مجزأة ملقاة بإهمال في زاوية الغرفة، لم تقو على التنفس، ولاحظت احمراراً شديداً قد بدأ يتلون به جلدك، لكنك رغم كل شيء شعرت براحة بال أهلتك لأن تسلم نفسك للنوم.

بلا مبالاة شارك في امتحانات الثانوية العامة، وعلى عكس أقرانه الذين تطول لحاهم في مثل تلك الأيام، ويصلون الليل بالنهار، ويعيشون ذروة التوتر والقلق لحظة استلامهم لأوراق الأسئلة في قاعة الامتحانات المغلقة، حيث تحترق الأعصاب ويحز سكين الخوف والرعب كل ذرة من دمائهم، كان فارس هادئاً وعادياً، كأنه يؤدي أمراً لم يعد مصيرياً بالنسبة له، كما هو بالنسبة للآخرين، ولكنه على كل حال كان متيقناً من أنه سيكون في عداد الناجحين، ولكنه أيضاً كان متأكداً من أنه لن يحصل على معدل عال.

وفي اليوم الذي أذيع فيه نبأ النتائج، توجه إلى موقف "السرفيس" وركب السيارة التي كان لها الدور، ناول السائق أجرته بهدوء، وكان يقدر أنه سيحصل على معدل يقترب من 65% ما أن وصلت السيارة الموقف الأخير في الساحة الرئيسية للبلدة، حتى نزل منها، وناول الصبي الذي يصيح بأعلى صوته: نتائج التوجيهي وهو يتأبط رزمة من الصحف على خاصرته، ثمن الصحيفة، ثم فتحها بسرعة، وتتبع بنظره الصفحة الثالثة، الرابعة الخامسة . . ها هي مدرسة صلاح الدين الثانوية، حرف الألف، الباء... الفاء قرأ ... فادي عمر مرعي، فارس أحمد شاكر، فارس أحمد عبد الله 602، هز رأسه ولف جريدته تحت إبطه وعاد أدراجه إلى المخيم. وفي الطريق بدأ يقرأ العناوين الرئيسية: القوات المشتركة تحاصر السعديات، انتعش ما بداخله، ثم تذكر أصدقاءه، فعاد وفتح الصحيفة على الصفحة الخامسة، توفيق عبد المعطي عبد الهادي93% , مؤيد عبد العزيز المصري 89%، فايز محمود اليوسف 87% , شعر بشيء من الأسى، ثم انتبه إلى أن السيارة قد صارت على باب بيت مؤيد فصاح بالسائق:

- على اليمين لو سمحت.

توقفت السيارة، نزل منها وتوجه لتوه إلى البيت المدهون بطلاء أبيض، ضغط على الزر الكهربائي، فجاءه الصوت الذي بدا له أنثوياً جذاباً.

- مين؟

- أنا.

لحظة وأطل عليه الوجه المليح.

- صباح الخير.

- يا هلا.

- مؤيد هون؟

- تفضل.

بارك لأصدقائه الثلاثة وجلس معهم، فواصلوا حديثهم، الذي يركز حول خططهم بالبدء في إعداد أوراقهم ومن ثم التوجه إلى عمان، حيث السفارات الأجنبية، ليقوموا بتقديم طلباتهم إلى جامعاتها، كانت من سمات فارس أنه يحسن الاستماع جيداً، فاستمع إليهم دون أن يشاركهم الحديث أو أن يعلق على ما يقولونه، وحين سأله توفيق عن نواياه، اكتفى بابتسامة مقتضبة.

- 13 -

في صباح يوم الثلاثاء توجه أفراد العائلة، الأم وأولادها سعاد وصالح وعلي، بعد أن بذلوا جهداً كبيراً في إقناع هذا الأخير برفقتهم، إلى مقر الحاكم العسكري، حيث وصلوا في تمام العاشرة، فوجدوا الأستاذة سارة في انتظارهم. فتوجهوا جميعاً إلى مكتب القاضي.

أخبرت المحامية المراسل الذي دخل مكتب القاضي، الذي أذن لهم بعد لحظات بالدخول فجلسوا على خمسة مقاعد في مواجهة مكتب القاضي، فيما كان هناك رجل بدين، حاد النظرات يجلس على مقعد منفرد في الزاوية البعيدة، ينظر إليهم بهدوء شديد، ولم ينبس بكلمة فيما كان القاضي يسأل الأم مجموعة من الأسئلة، حول المبررات التي دفعتها إلى رفع القضية، وان كانت ما تزال مصرة على متابعتها، محاولاً إقناعها بسحبها، ومتأكداً من أنه ليست هناك جهات خفية دفعتها لأن تفعل ذلك في محاولة منها لإثارة البلبلة، وجلب المتاعب للسلطات ومحاولة دق اسفين بينها وبين المواطنين. وإزاء إصرارها على متابعة القضية سألها القاضي عن الأدلة التي دفعتها للشك في ظروف موت ابنها، فأجابت بأن قلب الأم دليلها، فصاح أنه يريد دليلاً مادياً، فأجابت بأن رأسه كان متورما ، إضافة إلى آثار الكدمات والقيود في يديه وبأن وجهه لم يكن أزرقاً كما لم تكن عيناه جاحظتين، ولم يكن لسانه متدلياً، كما يحدث عادة مع المشنوقين، وأنها تكاد تؤكد أنه قتل، ومن ثم وضع الحبل حول رقبته، وأنه إذا لم يكن يصدقها، فليخرج الجثة وليتأكد بنفسه.

لكنه بادرها بالسؤال: كيف تجاوزتم أوامر السلطات بضرورة الاكتفاء بالنظر إلى وجه الجثة، وكيف قمتم بفحصها، وأنه يكتفي بشهادة الطبيب التي أمامه، والتي تؤكد أن سبب الموت كان الانتحار، وأن هذا قرار المحكمة. لم يفلح تدخل المحامية في ثني القاضي عن التسرع بالنطق بالحكم، محاولة تقديم الأدلة التي كانت تثبت الحالة النفسية للقتيل وآخرها رسالته إلى أمه قبل يومين من وقوع الحادثة، إلا أنه أكد أن قناعة المحكمة الأكيدة والنهائية هي أن المرحوم إنما قضى منتحراً، وأنه لأسباب إنسانية ولأنه يقدر الحالة النفسية للأم فانه لن يأمر بحبسها لتجاوزها أوامر السلطات، وسيعفيها من الغرامة المترتبة عليها برد شرف أجهزة أمن الدولة، ثم ضغط الزر المركب في أسفل تجويف المكتب القابع أمامه، والذي يشبه ذاك الذي يكون عادة في غرف مكاتب التحقيق، فجاء المراسل الذي رافقهم إلى خارج المقر.

في طريق العودة وبعد لحظات من الصمت، كانت تعبّر عما أصابهم من إحباط، تفوّه علي صائحاً:

- ألم أقل لكم منذ البداية أن لا فائدة من طرق أبواب المحكمة.

- لكنه شرف ابني أيها الولد.

قالت الأم:

- كلنا موقنون وكل الناس في المخيم كذلك، بأنه قضى شهيداً على أيديهم.

قالت سعاد:

- لكنني أريد اعترافاً، صريحاً منهم بذلك.

أردفت الأم.

- لكنهم وحوش لا يعترفون إلا بلغة العنف.

قال علي:

- يكفي أن نزعجهم.

علق صالح:

- حاولوا لكنني أظل غير مقتنع.

قال علي:

كانت الأم قد اتخذت قرارها بالطعن في الحكم أمام محكمة العدل العليا رغم تحفظ علي الذي لم تعترف به، فهو ولد لا يعتد كثيراً برأيه، لكنه علق رغم ذلك قائلاً:

- ولماذا لا نعرض القضية على مجلس الأمن؟

فيما اغرورقت عينا سعاد، وشعرت بنيران حارقة تلتهب في صدرها، فكتمت غيظها دون أن تتفوه بكلمة.

بعد أيام كان الرفاق الثلاثة في طريقهم إلى عمان، أما هو فقد رافقهم إلى "الكراجات" ثم احتضنهم واحداً تلو الآخر مودعاً بعد أن اتفق وإياهم على ضرورة المراسلة، ثم عاد أدراجه يفكر بهدوئه المعتاد في الإجراءات العملية، التي لابد أن يقدم عليها، مترجماً قراره الواقعي بالعمل لإعالة

الأسرة، فما وجد نفسه إلا وهو أمام بيت جارهم "أبو تيسير" عامل المياومة الذي يسري كل صباح إلى ما وراء الخط الأخضر، وطرق الباب.

رحب به الرجل وأوصى زوجته بإعداد الشاي الذي بدأ الرجلان بارتشافه، بينما بدأ فارس في الكشف عن سبب زيارته المفاجئة إلى جاره، فأجابه هذا بأن الأمر أسهل كثيراً مما يتصور، فما عليه إلا أن يصحو باكراً ويرافقه إلى حيث موقف الحافلات في مركز المدينة.

هكذا بدأ فارس رحلته الشاقة مع العمل، وكان كل يوم يكتشف حجم المعاناة التي يتعرض لها العمال العرب جراء قيامهم بالأعمال الشاقة، التي يأنف عنها العمال الإسرائيليون وبأجور أرخص بكثير من أجورهم، تضاف إلى ذلك ظروف التفرقة والإذلال التي يتعرضون لها يومياً.

لكنه رغم ذلك لم يتأفف، فكان يدرك أن لقمة العيش مرة، إنها مغمسة بالعرق إن لم تكن مغمسة بالدم، وكان أن تعرف إلى العديد من رفاق العمل، ذوي السواعد السمراء، والكبرياء المضغوط، وصادق بعضهم.

كان نبيل صديقاً جديداً، سرعان ما بدأ يلاحظ المرء أنهما قلما يفترقان، يتحاوران في مقعد الحافلة في رحلتي الذهاب والإياب. وفي أيام العطل والأعياد كانا يشاهدان معاً في السوق أو المقهى.

وذات يوم كانا يتحدثان عن ظروف العمل، فتساءل فارس قائلا : إنه لابد وأن تكون هناك طريقة ما لتحسين شروط عملهم. والحصول على بعض من حقوقهم الكثيرة المهدورة، فرد عليه نبيل السؤال قائلاً:

- وهل تعتقد أن اليد وحدها يمكن أن تصفق؟

وحين أجابه بالنفي.

أردف قائلاً:

- إذا لابد أن تتجمع جهود العمال في إطار ما.

- ولكن كيف؟

تساءل فارس، فأجابه رفيقه هامساً:

- هناك العديد من الأطر الوطنية، الكتل الوطنية للعمال، اتحاد عمال الضفة والقطاع.

ثم ساقه من يده في اليوم التالي وقام بتنسيبه للاتحاد، وعرض عليه عضوية الكتلة الوطنية فتشجع فارس ما دام أنه سيكون مع صديقه نبيل في ذلك الإطار.

بدأ نبيل في دس الأوراق في جيب صاحبه، الذي أخذ يقفل باب غرفته على نفسه، ويقرأها باهتمام، فيتعرف من خلالها على الكثير من حقائق الواقع الصعب الذي يعيشه أمثاله، فيشعر بصدق كل كلمة، وكأنها تعبر تماماً عما يعيشه هو بالذات.

وذات يوم صادف ذكرى يوم العمال العالمي، حيث أعلنت الكتل الوطنية والاتحاد العام الإضراب عن العمل، فبقي في البيت حتى الساعة العاشرة، حيث تناهت إلى سمعه أخبار المسيرات التي تطوف في الشوارع مطالبة بحق العمال الفلسطينيين في التحرر والمساواة، فخرج إلى الشارع وسار مع جموع المواطنين الذين كانوا يسيرون وراء حملة اللافتات المطالبة بحق تقرير المصير إلى أن جاءت

السيارات العسكرية، وبدأ الجنود بالقفز منها حاملين هرواتهم وبدأوا بالهجوم على المتظاهرين، والقبض على كل من تقع عليه أيديهم.

يومها دبّت الفوضى وتراكض المتظاهرون هاربين، أما فارس فلم تستطع نفسه أن تقبل فكرة أن يفر، وكان يشعر أنه لم يفعل جرماً يمكن أن يهرب بسببه، فكان أن قبضوا عليه.

* * *

التقيته وكان التحقيق معه قد انتهى بالحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات، بتهمة التنظيم غير المشروع، وما أسرع أن نشأت بيننا صداقة خاصة، كان مرحاً يمزح باستمرار حتى تشققت شفته السفلى من كثرة الضحك.

- هل تعلم يا عزيزي جواد، حينما أخرج بعد انقضاء المدة، سأتحول إلى مثقف ثوري أطارد النساء.

ثم تابع وهو يكاد أن "يفرط" من الضحك.

- وسأواصل دراستي في جامعة النجاح "بالك" ربك يسترها معنا ونلقالنا واحدة على عينها قشة!

كنا نسهر كل ليلة نتحدث في كل شيء، لنبقي على نباهة الذهن، خوفاً من التبلد، الذي يمكن أن ينشأ في رؤوسنا من رتابة الحياة هناك. حينما كنت أنا الذي يتحدث كان ينصت باهتمام، فيما إصبعه يتسلل إلى داخل منخريه، فأصيح به:

- ما هذا يا فارس.

فيبتسم قائلاً:

- إنها عادة بروليتارية!

وكان أن أفرج عنه ذات يوم بعد أن قضى من محكوميته مدة أربع سنوات، استطعنا خلالها جميعنا وليس هو فقط، أن نتعمق في فلسفة الثورة، وفي التعرف على البرامج السياسية والتنظيمية لجميع الفصائل، وكان الإفراج عنه ضمن حملة إفراجات تمت بإيعاز من روابط القرى في محاولة لتسويقها بين الناس، وبتلك المناسبة جمعونا في قاعة المحكمة في نابلس، حيث كلفناه بإلقاء كلمة الأسرى في الحفل الذي أقيم بالمناسبة. بدأ الحفل بكلمة ممثل الإدارة المدنية، ثم تلاه في الحديث زعيم روابط القرى المدعو جودت الجعفراوي وحين جاء الدور لفارس ليتحدث، بدأ كالنهر الثائر، كحصان جامح وقال:

- في البداية أؤكد أنني أتحدث باسم زملائي الأسرى المفرج عنهم، وزملائي الأسرى داخل السجون الصهيونية، يجب أن تعلموا إذا كنتم تعتقدون بأن الإفراج عنا هو ديمقراطية إسرائيلية وأن الروابط تمثلنا، بأن شعبنا قد قال بأن منظمة التحرير الفلسطينية هي ممثله الشرعي والوحيد وباعتراف أكثر من 120 دولة عالمية باستثناء أمريكا وإسرائيل وما الروابط إلا عملاء منبوذين ولا يمثلون إلا

أنفسهم، أما إذا كنتم تتبجحون بالديمقراطية أقول لكم بأن السجون تغص بالمرضى وكبار السن، الذين يمارس ضدهم القتل البطيء، فلماذا لا تفرجون عنهم؟

إن تبجحكم بالديمقراطية ليس سوى خدع وأكاذيب.

فقاطعه عريف الحفل قائلاً:

- يبدو أنك أيها الشاب المثقف عدو للسلام؟

فأجابه قائلاً:

- أنا وشعبي نحب السلام الحقيقي، أما أنتم فمخادعون.

وحين انتهى الحفل، كان رجالة الشرطة والمخابرات بانتظاره عند باب الخروج، حيث تم اعتقاله مرة أخرى ليمضي سنه كاملة، عقاباً عما تلفظ به في ذلك الاحتفال.

***

ما أن توجه إلى ذلك المبنى على التلة، المطلة على مشارف مدينة نابلس، حتى تذكر صديقه الذي لم يره بعد ذلك، فابتسم للمزحة التي أطلقها يوماً ولم يدرك حينها أنها يمكن أن تصبح حقيقة، يسعى إليها بقدمين ثابتين. وما هي إلا لحظات حتى كان يجتاز الشارع العام، ويعبر المدخل الرئيسي حيث الإدارة في الطابق الأول.

اصطف في الطابور حاملاً أوراقه تحت إبطه إلى أن أصبح وجهاً لوجه أمام آنسة ناولته ورقة مطبوعة، أخذها، دوّن في الفراغات، المعلومات المطلوبة، وبعد أيام كان يجد نفسه كالآخرين في مشواره اليومي الذي يبدأ مع الصباح وينتهي بعد العصر مع مجموعة من المحاضرات يدوّن ما لا يمكن للذاكرة أن تحتفظ به في الدفتر الذي صار رفيقاً إلى صدره، كلما جاء صباحاً أو عاد مساء من وإلى الجامعة.

لم يكن فارس بحاجة إلى كثير من الوقت، كي يتعرف إلى العديد من طلاب الجامعة، أو إلى أروقتها، أو حتى يصادق ذلك "الكرادور" الذي ينتهي بالكافتيريا العامة،حيث يتجمع الطلبة في أوقات استراحتهم ما بين المحاضرات، يتناقشون في العديد من القضايا الطلابية والوطنية، وكان يحسن الاستماع إلى أن اقتربت أيام الجدل الحار التي ترافق عادة انتخابات الاتحاد. وفي المساء حين يعود إلى ذلك البيت الذي استأجره مع ثلاثة من الزملاء، كان يسترجع شريط الجدل اليومي، ويقارن ما بين وجهات النظر فتتكون لديه قناعة ما، إلى أن لمحته يوماً وكان قد أثار انتباهها بهدوئه الظاهري، فلم تتردد في الاقتراب منه والتعرف إليه، إلى أن باغتته بالسؤال:

- وأنت ما رأيك؟ أقصد إلى أي القوائم سوف تدلي بصوتك؟

فأجاب بسرعة:

- للقائمة الوطنية بالطبع!

أعجبتها الإجابة وكانت من المرشحات على القائمة، تمتاز بحركتها الدؤوبة، وحيويتها، ومن يومها بدأت تترقب طلّته كل صباح، فما أن تراه، حتى تتوجه نحوه، وتأخذه من يده إلى حيث تكون مجموعة من الطلبة الأصدقاء، الذين هي بحاجة لأن تضمن أصواتهم.

شيئاً فشيئاً بدأ فارس في التدخل بالجدل الذي بدأ يحتد بين المتنافسين، فيتحدث بهدوء ومنطق يقنع الكثيرين بضرورة الائتلاف، فالمعركة واحدة وعدونا جميعاً هو الاحتلال وأذنابه من العملاء، فكان له بذلك دور واضح في نجاح قائمة الائتلاف.

لم تنته علاقته بأسماء –هكذا سماها- بانتهاء معركة الانتخابات، فقد شده نشاطها واندفاعها، وليس شيء آخر، فلم تكن الفتاة على قدر كبير من الجمال، لكنه رأى فيها مناضلة وطنية ذات مستقبل أكيد، أما هي فقد أعجبتها وسامته وأشياء أخرى تكشّفت فيما بعد.

كان يحدثها عن الفترة التي قضاها في السجن، وعن أحلامه، فما يشعران إلا وهما بين الورود في الحديقة المحيطة بالمبنى، لا يتوقف هو عن الحديث عن الوطن، فيما هي تتأمل جمال عينيه ووسامته، وشفته السفلى المنفلقة من منتصفها، فتشعر برغبة جامحة في أن تذوب بين ساعديه، وبقيت فترة طويلة تنتظر أن يفصح إليها بكلمة يقولها شاب تربطه علاقة خاصة بفتاة، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، إلى أن اختفى وما عاد إلى الجامعة حتى كادت أن تنساه.

***

على عجل تتنقل زينب بين أركان الحرم الجامعي، إلى أن وجدتها جالسة مع بعض الأصدقاء في الكافتيريا، فتوجهت إليها رأساً، وسحبتها من يدها. نظرت أسماء إلى جلسائها وصاحت:

- عن أذنكم دقائق فقط.

- أذنك معك.

أجابوا.

- ما الأمر؟

سألت أسماء صديقتها.

فاقتربت زينب من زميلتها حتى التصقت بها، وهمست في أذنها.

- مبروك يا رفيقة!

- أخيراً شكراً لك.

وقبل أن تواصل التعبير عن فرحتها، قاطعتها رفيقتها قائلة:

- غداً الساعة الخامسة مساء لدينا اجتماع، وكما أوضحت لك سابقاً عليك أن تخرجي من بيتك، ثم تدوري في الشوارع حتى تتأكدي من أنه لا أحد يتبعك، حتى تصلي إلى موقف الباص تحت شجرة الخروب، التي كنا نتنزه أيام الربيع عندها، هناك أكون بانتظارك، حيث نذهب معاً إلى المكان.

فعلت أسماء ما طلب منها على أكمل وجه، ثم سارت وراء رفيقتها على بعد خطوات، وكأنها لا تعرفها حتى إذا وصلتا البيت، دقت زينب دقتين قليلاً، ثم دقة ثالثة.

جاء الصوت من الداخل:

- من ؟

- أنا بائعة اليانصيب.

أنفتح الباب فدخلت زينب ثم تبعتها أسماء، وبعد قليل دخل عليهما شاب، شهقت أسماء عندما رأته، لكنه تجاهلها، فعرّفت عليه زينب:

- الرفيق أبو الفوارس.

- الرفيقة أسماء.

دام الاجتماع ساعتين شرح خلالهما أبو الفوارس حقيقة الأوضاع السياسية في المنطقة، وأكد على ضرورة الانتباه للألاعيب السياسية التي يتبعها العدو، ثم شرح لهم طبيعة المهمة التي ستتولى كل واحدة منهما القيام بها.

وتوالت الاجتماعات بعد ذلك، كانت أسماء تنفذ ما يوكل إليها بحماس واضح، وكأنها تفعل ما يأمرها به الرفيق من أجله فقط، وكانت في أعماقها تكاد تجن لتجاهله معرفته السابقة لها. لكنها كانت تزداد إعجاباً به، أنه رجل جميل وقوي، يتحكم تماماً بأعصابه وبمشاعره ولكن هل لديه مشاعر؟ أقصد نحوي؟ بقي هذا السؤال يتردد في داخلها مسبباً لها الأرق كلما آوت إلى فراشها، خصوصاً في الليالي التي تعقب تلك الاجتماعات، فيكون في كل مرة كما كان هو في أول مرة.

إلى أن كاد يغمى عليها، فدارت الدنيا من حولها، وتخيلت نفسها وقد صارت فراشة يحملها جناحان رقيقان يتّشحان بألوان زاهية، حين طلب منها الزواج، بعد أن تأكد أنها غير مخطوبة وغير مرتبطة بأحد.

كانت هي بالنسبة إليه رفيقة نشيطة، ذات مستقبل حزبي أكيد، وربما كان قد فكر بحل جذري لمشكلتها مع أخيها الذي يمنعها من الخروج، وينهال عليها بأسئلته المتوالية كلما خرجت من البيت، تماماً كما انهالت على فارس، وكادت أن تثير أعصابه، رغم ما يتصف به من هدوء يوم ذهب يطلب منه يد أخته، أين تعمل؟ كم مرتبك؟ هل لديك بيت؟ هل هو مؤثث أثاثاً كاملاً؟ واهلك.. هل يسكنون معك؟ أمك هل هي على قيد الحياة؟ ولماذا لم تكمل تعليمك الجامعي؟ وكم ستدفع مهراً؟ لم تهدأ أعصاب فارس إلا حين أطلقت أمها الزغاريد أعلاناً للموافقة المبدئية التي تمت بين الرجلين.

مع تثاؤبات الصباح الأولى لذلك اليوم، صحا أهل طوباس على صراخ الفتاة الذي كان ينبعث حاداً ممتزجاً مع ولولات أخويها فهرعوا مسرعين ليتبينوا الأمر، وما أن وصلوا إلى البيت الذي بات منعزلاً تقريباً منذ أن رحلت صاحبته قبل أعوام، حتى وجدوا الفتاة ابنه السبعة عشر عاماً، تصرخ وتشد شعرها، فتخرج خصلاته الناعمة بين كفّيها كوبرات ذيل الفرس، تجمعت بعض النسوة حولها وأمسكن بها محاولات تهدئة روعها، فيما كان بعض الرجال، وقد أشار لهم الولدان يدخلون الغرفة حيث كان الرجل ذو الخمس والخمسين عاماً متخشبا في فراشه، وقد انغرس منجله في بطنه بينما بقع الدم قد تجمدت فوق ملابسه وعلى الفراش، بعد أن ظل طوال ذلك المساء قلقاً لم يستطع النوم، وبين لحظة وأخرى، ينهض فيقبل أولاده واحداً تلو الآخر، حتى إذا فتحت الابنة عينها لحظة مست شفتاه جبينها، ومسد شعرها بكفه وأوصاها أن تعتني بأخويها.

كان يوماً حزيناً ذلك اليوم الذي عاد فيه الرجل القروي مع أبنائه الثلاثة من سجن نابلس إلى بيته، فظل أربعتهم طوال الطريق مطرقين رؤوسهم، بينما كان الأب يطوق جذع ابنته بذراعه منكس الرأس، مملوءاً بالخيبة، وكانت هي كخرقة بالية بالكاد تقوى قدمها على حمل جثتها من العار، ورغم ذلك ساروا جميعاً من نابلس إلى طوباس سيراً على الأقدام حتى إذا دخلوا القرية كانت الشمس قد غربت.

انسلوا إلى داخلها كاللصوص، أغلقوا عليهم بابهم، ولم تزغرد الفتاة كعادة النسوة حين يتم الإفراج عن المعتقلين!

ستة عشر يوماً قضاها في السجن، انسحقت خلالها عظامه الشائخة، ولم تنفرج شفتاه عن كلمة واحدة. كان فلاحاً أمياً لا يخون العيش والملح، يسرح في الصباح وقد دس تحت إبطه مخلاه الذي يحوي صرة الملح ورؤوس البصل وحبات البندورة وأرغفة الخبز، إلى الحقل فيظل طوال اليوم يجز سيقان الحنطة التي تيبست بفعل حرارة الشمس اللاهبة في حزيران، لا يرافقه سوى منجله، وأبيات العتابا وذكريات أم العبد، التي ما تلبث أن تتراءى له بين أمواج الحنطة الذهبية، فيبدأ بعتابها، هكذا يا أم العبد، تتركينني أكابد الحياة وحدي مع هؤلاء الأولاد، سامحك الله!

وفي أحد الأيام، مر به فجأة ثلاثة رجال ملثمين، طرحوا عليه السلام، وتمددوا بجواره وقد هدّهم التعب، طلبوا منه ماء وطعاماً، فناولهم إبريق الماء، ومخلاة الطعام، التهموا ما بها ومكثوا قليلاً، ثم اختفوا عند مغيب الشمس، عاد يومها إلى البيت وتناول عشاءه مع أولاده وحاول أن ينام.

بعد يومين على تلك الحادثة، جاءته المجموعة العسكرية عند منتصف الليل، داهمت البيت وقلبت عاليه سافله، ثم اقتادوه مكبلاً إلى مقر الحاكم العسكري، حيث استجوبوه هناك ثم أودعوه السجن.

ستة عشر يوماً أنكر خلالها أنه رأى أحداً، وبينما هو في قبو التحقيق، انفتح الباب فجأة، فتراءت ابنته عارية الصدر، منفوشة الشعر، محمرة العينين من البكاء.

سقط على الأرض مغشياً عليه لحظة رؤيته لها على هذا الحال، رشوا عليه الماء، فصحا أجلسوه وكان سجانان قد حصراه بينهما، بينما كان ثالث يغازل الفتاة، ويعرض عليها نقوداً أن هي قبلت فضاجعته، يتحسس صدرها بأصابعه، ثم يحتضن ثديها بكفيه، كان الدم يغلي في عروق الوالد المسكين، أما المحقق فقد بدأ بمساومة الرجل.

- لو ذكرت لنا أسماء الرجال وأوصافهم، فإنني سأطرد فوراً هذا الشاب الذي أعجبته ابنتك، فما رأيك؟

شعر الرجل كأنه في قدر يغلي، يتمنى لو يصير لغماً ينفجر فيمن حوله، لكن ماذا عساه أن يفعل؟ أيعترف ويحمي شرف ابنته من الذئب؟ والشباب والعيش والملح والخيانة؟

- إن بقيت على إصرارك بالإنكار فإن أبناءك الموجودين في الغرفة المجاورة سيتعرضون أمام عينيك لأبشع مما ترى مما يحدث لابنتك! ها ماذا تقول؟

الأب يهمهم ويشتم، فيما الشاب يبدأ بوضع يديه على أرداف الصبية، ثم يبدأ بحل حزامه فتنتابه حالة من الهستيريا، المحقق يوميء للشاب أن ينتظر قليلاً.

- هذه ابنتك، هل تحبها؟

يحبها إنه لا يحب أحداً في الدنيا عشر ما يحبها، إنها كل ما لديه في هذه الدنيا.

- والعار؟ هل تخشى العار؟ هل هي غالية عليك؟

وسمعتك؟ هل تهمك سمعتك؟ ماذا سيكون موقفك بين الناس، حين يقال أن عرضك قد انتهك وأنك بعت ابنتك للمخابرات؟ ها ماذا تقول؟ وبعدين؟ سأسمح لهذا الشاب أن يضاجعها أمام عينيك، وبعد أن ينتهي تأخذها وتذهب أنت وأولادك بالسلامة إلى البيت. لا يجيب الرجل الذي تكوم مهدود الحيل، فيوميء الضابط للشاب الذي انقض من فوره على الفتاة فمزق ثوبها وطرحها أرضاً وما أن وضع يده على فخدها، حتى انفتح الفم الذي انغلق ستة عشر يوماً، وما أن أفرغ العجوز ما في جعبته، حتى انفرجت أسارير الضابط وقال:

- شكراً يا حبيبي، ولكن لماذا أنكرت وكتمت هذه المعلومات عن السلطات.

ثم رفع يده وهوى بها على وجه العجوز فطرحه أرضاً وخرج.

وقبل أن يبتعد تلفت وراءه وصاح بزميله الشاب:

- إذا كنت ترغب بها فلا بأس عقاباً لهذا الحيوان!

وبعد أيام كان فارس مطلوباً للحاكم العسكري.

- افتاخ هاديلت (*)

* تعني بالعبرية: إفتح الباب

ترافقت أصواتهم مع دقاتهم على باب البيت القابع في "الزاروبة" الثالثة على يمين الشارع الرئيسي للمخيم. وما أن انفتح الباب حتى تدافعوا إلى داخله، وفي ظرف لحظات، كان البيت يلقي ما في جوفه في فوضى.

فتشوا كل شيء، خصوصاً ما بين الكتب، وحاجيات فارس، آملين أن يجدوا شيئاً خاصاً، يعرفونه جيداً، لكن دون جدوى.

- وين ابنك؟
- لا أدري إنه ليس هنا، لقد فتشتم كل شيء.

- بسيطة راح يقع بين أيدينا.

لفت علي الواقف إلى جوار أمه نظر الضابط فسأله:

- من أنت؟

- إنه ابني يا خواجة.

ردت الأم.

- آه أخو فارس ما اسمك؟

- علي

سحب الضابط علياً من يده وصاح:

- سيبقى عندنا حتى يجيء فارس ويسلم نفسه.

- ولكن ما ذنب هذا؟

- مش شغلك.

وخرجت المجموعة مصطحبة معها الفتى، وبعد لحظات استرد المخيم أنفاسه التي حبسها طوال حملة التفتيش.

بعد سبعة شهور كان فارس ضحية كمين له في محطة بنزين في نابلس، حيث أخبره أحدهم بأن هناك مكالمة هاتفية له في كابينة الهاتف، وما أن دخل الكابينة، حتى تجمع عليه أكثر من عشرين شخصاً، انهالوا عليه ضرباً، أسقط في يده في اللحظة الأولى بسبب المفاجأة ولم ينتبه سوى ليديه تحميان رأسه، وقد اعتقد أنه ملاق الموت لا محالة، فقد تبادر لذهنه أن هؤلاء قطيع من المستوطنين، فكان يشعر بقلبه يرف كطائر صغير لحظة ذبحه، ولم يصحو من ذهوله إلا بعد مضي ربع ساعة، شعر أنها الدهر، توالى خلالها شريط الحياة كاملاً في تلك اللحظة، ولم ينتبه إلى رفيقه الذي كان معه، خارج الكابينة، الذي فر لحظة مفاجأة الكمين له، تذكر زوجته، وابنته الصغيرة ذات العيون الزرق. وتساءل عن سر هذا اللون الذي جاء للعينين الصغيرتين، وبذل قصارى جهده كي يتذكر سلسلة جدوده، محاولاً التقاط جذر الوريث لهذا اللون.

لم ينتبه انه حيّ إلا لحظة وجد نفسه محشوراً في السيارة العسكرية معصوب العينين، فانتبه إلى أنه في قبضة "الشين بيت" , عندها اندفع بتفريغ كل شحنات الشعور بالموت المفاجيء في وجه الضابط الذي كان يجلس إلى جواره، شتماً وسباً، فما كان من هذا الضابط إلا أن ابتسم قائلاً:

- معك حق!

ثم ساد الهدوء إلى أن وصلوا إلى سجن جنين.

ما أن وصل حتى أخذوه إلى غرفة التحقيق، حيث كان بانتظاره الضابط الذي بادره بالسؤال عن اسمه، وما أن أجاب حتى قهقه الضابط من أعماقه وصاح:

- أخيراً، أهلاً وسهلاً، والله من زمان كان لازم تشرفنا!

ثم أردف:

- باختصار فارس أريدك أن توضح لي علاقتك بالمخربين.

- ليست لي علاقة، أجاب

- نعم.

قال الضابط ثم خرج بخفة من خلف مكتبه وصفعه بكل بقوة على وجهه، شعر فارس بأن النار تكاد تخرج من وجهه، فامتلأ غيظاً كتمه في أعماقه، ثم عاد الضابط إلى خلف مكتبه واخرج إضبارة ممتلئة بالأوراق من درج المكتب، ثم وضعها على سطحه، أخذ يتفحصها لمدة دقائق ثم فجأة قال:

أنت قبل أسبوع كنت في نابلس والتقيت مع.... لا أريد أن أقول لك الآن، أنت وأحمد أصدقاء جداً جداً.... هل تتذكر رحلة الجولان؟ مع من تحدثت يا بطل؟

ثم يقفل الإضبارة ويخرج أخرى، ويتفحصها ثم يقول:

- جلس معك شخص من هو؟ والشخص عرض عليك التنظيم، كنت معه في.... في أي مكان؟ قل أحسن لك!

- نعم، لقد ترددت في البداية.... ولكن... لا أكمل أنت....

ثم طوى الأوراق وسأله بعصبية واضحة:

- دعني من كل هذا الآن، احكي لي عن الأسلحة، هذا ما يهمني الآن... الجرافات جاهزة لنسف البيت وليس لديك إلا القليل من الوقت، نصف ساعة إما أن تقول وإما أن تبدأ الجرافات... الأسلحة ليست في البيت، ولن ننسفه إذا سلمتها، وأنت حر، الكرة في ملعبك والأمر منوط بك، البيت أم الأسلحة...؟ لا تتردد.

غاب فارس بذاكرته إلى ذلك اليوم الذي اعتقل فيه عدنان وياسر، بعد مضي شهر من التحقيق دون أن يتفوها بشيء، اعتقلوا والد عدنان وكان رجلاً مسناً يصلي , كان الوقت شهر رمضان وكان صائماً، وبينما هو في غرفة التحقيق مر به ضابط ما أن رآه حتى أظهر الدهشة فارتفعت عقيرته بالسباب على إسرائيل، كيف تعتقل رجلاً فاضلاً، ثم صحبه إلى غرفة حيث صلى العشاء معه. وبعد أن تناولا إفطار رمضان، طلب منه هامساً في أذنه أن يسلم "الحديدة" حتى ينتهي الأمر ويعود بابنه إلى بيته، فذهب الوالد معهم في الليل وحفر تحت الدالية وأخرج من أحشاء الأرض مرادهم، وحين عادوا به، طلب منه الضابط أن يوقع على الإفادة باعتبار ذلك إجراء روتينيا ليخرج، وبعد أن فعل، طلب منه أن يقوم بإقناع ابنه بالاعتراف ففعل، عند ذلك حوكم الاثنان بخمسة عشر عاماً، ونسفوا البيت!

انتبه الضابط إلى صمته فناوله لكمة قوية، ثم ثانية، وتوالت اللكمات على وجهه ورأسه الذي بدأ بالتورم، بينما أخذت الدماء تسيل من أنفه وفمه، وفي تلك اللحظة دخل ضابط آخر فصاح:

- يا الهي ما هذا؟

وابعد الضابط الأول عن فارس وتابع قائلاً:

- ما هي المشكلة دعونا نحلها سلمياً:

وأخذ بتقديم النصائح إلى فارس.

- القضية واضحة، الاعترافات عليك كثيرة، لماذا لا توضح علاقتك، وتذهب إلى بيتك، نحن نريد فقط حسن النية ليس أكثر ولا أقل من ذلك. ثم أردف:

- ها ماذا قلت؟

- ليست لي علاقة.

أجاب فارس ومسح بيده الدماء التي وصلت إلى ذقنه.

- لا زودتها، هل نحن جئنا بك من الشارع زوراً وتبلياً عليك؟

وتابع:

- أنت حر، سيقتلونك من الضرب، لن يكون أمامك خيار سوى الاعتراف، وتوجه إلى الضابط الأول قائلاً:

- اقتراحي أن تمهله حتى الصباح ليفكر بالأمر.

في ذلك المساء جاءته أسماء وقد أرخت شعرها الأسود على كتفها، ترتدي قميص نوم، يظهر مفاتنها، شعر بالرغبة تجتاح كل كيانه، أطفأت النور، ثم ذهبت إلى المطبخ، بعد قليل عادت إليه، ضمها إلى صدره، انهال عليها تقبيلاً، وبعد أن افرغ فيها كل ما بداخله من شهوة انطرح على ظهره بجانبها، وصمت. بينما أخذت هي تداعب شعره ثم وجهه بأصابعها، سرح بخياله إلى البعيد... البعيد، لن يطول انتظارنا، سيجيء اليوم الذي نعيش فيه بحرية وتهدأ فيه نفوسنا من القلق اليومي، لا مطاردة ولا اعتقال، نقول ما نرغب دون أن نخشى أحداً ونفعل ما نريد، نركض على امتداد الأرض، نقبل الطبيعة ما شاءت لنا إرادتنا. أصابعها مازالت تداعبه، تدغدغه. في ذلك اليوم يا أسماء لا أكاد أتصور مدى الفرح الذي سيتوزع على الناس، سيلتقي الأحبة، وسيجتمع شمل الغائبين، سأرى، فؤاد، وتوفيق وموفق....

شدته مداعباتها فاستدار لها وضمها، هاله أنه يرى بطنها وقد بدأت تنتفخ... وتنتفخ وفجأة تصرخ.

- يا الهي ماذا أفعل؟

نهض مسرعاً أيقظ أمه التي قامت من فورها، ووضعت "جردل" الماء على النار. اذهب يا حبيبي إلى القابلة أم تحسين، أحضرها فوراً.

صرخات حادة، أطل الوليد على الدنيا.

- مبروك، أصبحت أباً، جاءتك بنت كالبدر.

نسميها شروق.

قبّل زوجته وقال لها:

- الحمد لله على السلامة يا حبيبتي، انظري كم هي جميلة هذه الصغيرة، تشبهك، انظري عيونها زرقاء... يا الهي من أين جاء لعيونها اللون الأزرق؟

صحا من غفوته متكدراً، شعر بالألم يسري في كيانه، تحسس وجنتيه المتورمتين ثم تكور على نفسه ونام.

ما أن أصحو حتى أبدا بالطرق على الباب. كما اعتدت تماماً منذ أن جئت إلى هنا, يتجاهلني الحارس قليلاً ثم يجيء يفتح الباب. أخرج متوجهاً إلى المراحيض حيث أقضي حاجتي ولا يفوتني كالعادة أن أطلب من الحارس حبة الأسبرين لأعالج الصداع الذي ينتابني، وكالعادة أيضاً أدس الحبة بين حاجياتي الشخصية، وبمنتهى السرية أقوم بعدّ الحبوب التي تتزايد مع عدد الأيام، لقد صار عددها الآن سبعة عشر حبة، ألفها برفق شديد، إنها سلاحي الأخير، فيما لو...

بعد لحظات يجيء المراسل يطلبني، اتبعه إلى غرفة التحقيق.

- صباح الخير.

- صباح الزفت.

ويناولني صفعة حامية على الريق، ويتابع.

- ألن تعترف؟

- بماذا اعترف، لقد قلت لكم انه ليست لي أية علاقة .

يقترب مني الضابط. خلته ينوي مهاجمتي بالضرب، فدافعت بحركة عفوية بأن وضعت يدي فوق رأسي، لكنه فاجأني بأن وقف أمامي هادئاً. وبدأ بفك أزرار قميصي، ثم طلب مني أن أخلعه ففعلت. ثم نادى على المراسل الذي جاء فوراً، أومأ إليه فعاد بعد لحظات برفقة جنديين كأنهما بغلان، أشار لهما بسبابته، فخلعا عني القميص الداخلي، ثم بدأ بفك أزرار بنطالي ثم خلعوه عني، ثم أيضاً السروال، فصرت هكذا كما أنجبتني أمي.

بهدوء أيضاً طلب مني أن أصعد على الطاولة، ترددت، فصرخ بي، فعلت وأنا أضع يدي بين ساقي.

- ألست أسير حرب؟ ثم تابع:

- هيا اخطب بنا باسم الشعب الفلسطيني، هيا ما هي حقوقكم؟

وحين انتبه إلى عدم استجابتي تناول خيزرانة كانت على مكتبه وأخذ يهوي بها على كل أنحاء جسدي.

- هيا يا ابن القحبة، اخطب بنا.

وإزاء صمتي كان يزداد هياجه الذي يسري في الخيزرانة ناراً يكتوي بها جلدي.

تابع هياجه إلى أن بدأ الدم ينز من أنحاء مختلفة من جسدي، وحين بدأ العرق يتصبب من على جبينه وتحت إبطيه جلس على الكرسي، وأومأ للجنديين اللذين خرج أحدهما، ثم عاد بكلبين واحدهما بحجم الحمار، ثم أطلقهما علي، فأخذا ينهشان لحمي، وكنت لا أزال في حالة من الوعي مكنتني من أن أحفظ عضوي بيدي خوف أن يأكلانه.

اليوم هو الخميس، وكنت متعوداً في مثل هذا اليوم أن أعود مبكراً إلى البيت، أتناول العشاء مع زوجتي، ثم نشاهد معاً فيلم السهرة، أما اليوم فإنه لن يكون بمقدورها أن تستمتع بمشاهدة السهرة معي. من المؤكد أن تشعر بالوحدة حين تأوي إلى الفراش من دوني صحيح أنها لن تكون الليلة الأولى التي تبيت فيها بمفردها، لكنها قطعاً ستكون فاتحة ليال, الله وحده يعلم متى تنتهي.

أسماء يا عزيزتي لم استطع أن أدخر لك سوى الألم والوحدة، ولكن ماذا عساي أن أفعل؟ هل أسقط وأعود إليك خائناً؟ أم أن الأفضل أن أترك لك الذكرى الشامخة، أكيد أنهم لن يتركوها وحدها، ربما هي الآن تنام في فراش واحد مع أمي، بل على الأغلب مع أختي سعاد أو ربما ذهبت لتقيم مع أخيها، المهم أنهم لن يتركوها والصغيرة وحدهما...

وقبل أن يتسع الخيال بذاكرته، فتح باب الزنزانة وجاءوه بالطعام، شرب كأس الشاي ورغب بسيجارة، ولكن من أين له بها، تذكر أنه كان قبل ذلك يذهب إلى الحمام، فيأخذ دوشاً ساخناً يلين عضلات جسده، ويحرك ذهنه ويبث الحيوية في أعضائه، ثم يغسل أسنانه بالمعجون لكنه منذ هذا اليوم بدأ يعود نفسه على أنه محروم من العديد من الأشياء اليومية العادية فهو هنا في حالة من المواجهة الحامية، ما اسهل الحديث عن الثورة، ولكن ما أصعب ممارستها، حين تكون طليقاً لا تشعر بقيمة الأشياء البسيطة بحكم البداهة تخرج وقت تشاء، تتمتع بأشعة الشمس، برؤية الناس، بالتجوال في السوق، بأن تنام وقت تشاء، وتصحو وقت تشاء، بأن تذهب إلى أمك، فتقبل رأسها، وتنال الدعاء الذي يفتح عليك يومك، بأن تضع الصغيرة في حضنك، فتتوزع الراحة في أجزائك، بأن تنفث ما بداخلك من توتر مع دخان سيجارة. شعر بإرتعاشة البرد، فحنّ إلى تلك السيجارة التي كان يشعلها حين يكون ذاهباً إلى مهمة ما وحين يلسعه البرد يشعلها ويضعها بين كفيه متدفئاً بما يشع عنها من حرارة.

انتبه إلى المطر الذي ينهمر بغزارة في الخارج، ودّ لو أنهم يطلقون سراحه للحظات، حتى يقف تحت المطر، إلى أن يبتل شعره وتترنخ ثيابه. انه يعشق المطر، هذا ما قاله يوماً، إنه يحب المطر والصغار والليل، ولماذا الليل أيضاً يا فارس؟

سألته فأجاب يومها:

- لأني أحب ما أقوم به فيه.

كان متأكداً من أنهم سيقومون باستدعائه في ذلك اليوم، ولكن متى يحدث ذلك، لا يدري فبقي على أعصابه متحفزاً، يجوب تلك الأمتار القليلة، التي هي مساحة الزنزانة إلى أن جاءه المراسل فجأة فأقتاده أمامه، مصوباً رشاشه إلى ظهره.

- من هنا.

ودخل غرفة التحقيق.

- هل فكرت.

- ليس هناك من شيء يستدعي التفكير.

- يا حيوان ألن تعترف؟

- ليس هناك ما أعترف به.

فقد الضابط أعصابه، فضغط من فوره على الجرس المثبت في بطن مكتبه، عاد إليه المراسل ببعض الأدوات، وضعها أمامه على المكتب وخرج. نهض الضابط من على مقعده وفتح باب الغرفة بحيث صار بإمكان فارس أن يرى ويسمع ما يحدث في غرفة التحقيق المقابلة، حيث كانوا يمارسون التعذيب مع معتقل آخر.

ساد الصمت في غرفة التحقيق، وليس هناك سوى صوت صراخ المعتقل الذي كانوا قد أجلسوه مقيداً على كرسي وقد بدأوا بإطفاء سجائرهم في لحمه، ثم بدأوا بصدمه بالكهرباء.

كلما غاب عن الوعي، أوقفوا الكهرباء، ثم دلقوا الماء على رأسه، ومن ثم يعالجونه باللكمات في رأسه، في صدره، على ظهره، يديه، رجليه.. وهكذا، وفارس يشتعل داخله تضامناً مع ذاك الزميل، الذي لا يقوى على أن يفعل له شيئاً. بعد أن انتهوا من الزميل، نهض الضابط واغلق باب الغرفة، بعد أن خرج وتركه فيها وحده، لم يجرؤ فارس على النهوض من مكانه، وبعد لحظات بدأ يسمع أصواتاً موسيقية في الغرفة، تنساب رقيقة ناعمة، ثم فجأة تتحول إلى صخب، ترافقها إضاءة خافتة ما تلبث أن تتحول إلى إضاءة تلفح حرارتها جسده. أكثر من نصف ساعة مضت على هذه الحال، إلى أن شعر فارس بأن أعصابه تتلاطم كمياه بحر هائج، انه غريق بين الحياة والموت فيها، وفجأة توقف كل شيء للحظة، هدأت الموسيقى وتوقف الصخب وساد الظلام. انفتح الباب ودخل ستة رجال، بسرعة البرق أخذوا ينهالون عليه بالأسئلة، اسمك، عمرك، أين تسكن، ماذا تعمل، متى دخلت التنظيم، من هم أصدقاؤك...

شعر أنه في دوامة، وانه يكاد يفلت من نفسه، لا مجال له أن يفكر في الأسئلة المطروحة عليه في الوقت الذي يخشى فيه أن تفلت إجابة ما منه، فكان أن لجأ إلى الصمت. ثم بدأ يشعر بأن إحساسه بالوقت، بالمكان، بالناس، قد بدأ ينعدم، بل لعله في حلم!

بقى فارس على هذه الحال من الاستجواب مدة أسابيع، إلى أن تمكنت أذناه يوماً من التقاط تلك الكلمة التي طالما منّى النفس بأن يسمعها، تخرج من بين شفتي المحقق، حينما دخل الضابط المسؤول غرفة التحقيق، وكان هو في حالة من الإرهاق جراء وجبة التعذيب.

لورتسي مدبير (*).

* بالعبرية تعني: لا يريد أن يتكلم

خيل إليه أنه يحلم، وكأن الكلمة قد طافت بذهنه ولم ينطق بها المحقق. وما أن أعادوه إلى زنزانته، حتى نسي آلامه ولم ينم طوال الليل، يغطي رأسه بالبطانية فتكاد حالة الفرح تخرج من بين جنباته ضحكات، ما يلبث أن يكتمها، حتى خاف على نفسه من الجنون.

ظل غير مصدق نفسه، إلى أن استدعوه مساء اليوم التالي، فدخل إلى الضابط الذي ما أن رآه حتى عرفه. وكان هذه المرة متأكداً تماماً من نفسه، متمالكاً أعصابه، حتى لو قطعوه، فلن يشعر بشيء سوى بالظفر! بلى انه الضابط إلياس، كل الأوصاف التي سمعها عنه تنطبق عليه تماماً، الرأس الصلعاء، الشاربان الأشقران، برودة الأعصاب البارة، الندبة ذات الشعرات الشقر على جانب الأنف، القامة الربعة، نعم إنه هو.

ما أن رآه وتأكد منه حتى تذكر عوض، فغمت نفسه، وجالت بها حسرة الذكرى، هاتان القبضتان هما اللتان أطبقتا على رقبة الفتى الذي ما كان يتوقف عن الحلم، تمنى لو أن يلتقيه في ساح المبارزة على طريقة الفرسان أيام زمان، حينها كان سيهجم عليه بكل الحقد الذي في الدنيا، فاجأه الضابط قائلاً:

- أهلاً سيد فارس، شو حكايتك، يعني مفكرنا حضرتك شو هبايل؟
- والا شو أغبياء، يا حبيبي لو كنت بتعتقد إننا سنتغلب معك أو مع أمثالك كان ضاعت إسرائيل من زمان.

ثم تابع حديثه:

- اسمع فارس سأحكي لك قصة كيف، يتم تدريب رجل المخابرات الإسرائيلي، حيث يمكث الشخص داخل غرفة مغلقة مع كرسي فقط ويظل يتحدث إليه لمدة ثلاثة أيام، بعد ذلك يحضر المسؤول، إذا وجد الكرسي يتكلم، يتم قبول الشخص للعمل في جهاز المخابرات، أما إذا ظل صامتاً مثلك، فإنه يرفض من البداية، وأنا سأتفرغ لك عدة أيام وليس ورائي عمل سواك، وللعلم فقد سبق وأن تحدث الكرسي معي.

أجابه فارس بثقة:

- وهل حققت مع طاولة؟

- كلا.

- أنا الآن طاولة، اذهب وحقق مع طاولة، عندما تعود ستجدني قد أصبحت جبلاً. فانفجر الضابط قائلاً:

- اذهب أريد أن أنام.

ما أن وصل إلى زنزانته حتى شعر بارتياح بالغ يتوزع على أعصابه، فاندس بين الفرشة والبطانيات، ولأول مرة لم تتقزز نفسه من رائحة الرطوبة والعفونة الملتصقة بها، كان متأكداً من أنه لن يستطيع النوم حتى ساعة متأخرة من الليل، رغب في التحدث إلى أحدهم جاءه طيف أمه، يبتسم له، دس رأسه في حضنها، وتدثر بالحنان البالغ بين جنباته، وبملمس الأصابع وهي تداعب شعره ووجهه، رنت في أذنيه كلماتها، لا تعد إلا بطلاً, أيقن أنه جدير بأن يكون ابنها، دقات موسيقية تصل إلى أذنيه ظنها ترنيمات تهدهد بها الأم مهده، لكن واقعية الدقات سحبته من خياله.

فانتبه إلى أن مصدرها الجدار!

ألصق أذنه إلى الحائط الرطب، وبدأ يلتقط الكلمات المشفرة.

- أنا أيمن سعيد المفتي.

كاد أن يطير من الفرح فهو يعرف الفتى

- أنا فارس المنصور.

أجابه بدقات "أبجد هوز" على الحائط وتابع.

- ما هي أخبارك يا أيمن؟ اصمد يا رفيقي، متى اعتقلوك؟

- قبل أيام.

أجابه أيمن.

- ما هي أخبارك؟

- لقد اغتالوا ظافر المصري.

- في ستين داهية، أجاب في نفسه، ثم توقف الاتصال بين الجارين فجأة، فيما تعالت أصوات الجلبة في الرواق. وكان أن جاءوا إليه للتحقيق مرة أخرى.

لحظات وكان أمام الضابط الياس مرة أخرى، وما أن دخل وقائمة التهم في ازدياد.

- أنت متهم بقتل ظافر المصري.

ثم تابع باحتداد.

- اعترف، اعترف، الاعتراف أو حياتك، أنت دبرت جريمة اغتيال المصري.

- كيف اقتله وأنا هنا؟

لا لم تقتله أنت، لكنك دبرت مؤامرة اغتياله، لقد اعترفوا عليك، أنس كل التهم السابقة، فهي أمور ثابتة ضدك، والحكم عليها مؤبد حتى بدون اعتراف حسب قانون تامير، لكننا نريد أن نعرف المسؤول عنك، فقط من هو المسؤول عنك، من هو الملثم، أين البيت الذي يقيم فيه؟ أين الملثم، لقد اعترفوا عليه، ولا يغير الإنكار شيئاً، كل شيء انتهى، إعترف. وكان الضابط ينهال عليه بالضرب بكل ما أوتي من قوة.

- أنت أيها المحقق لماذا تضربني بشدة؟

- لكي تعترف بسرعة.

- ومن قال لك أنني أعترف بالضرب أو بغيره! ألم يقولوا لك أنني لا أعترف، وأنهم جربوني قبل ذلك، فلماذا تتعب نفسك، فأنا لا أعترف.

- إخرس، إخرس سوف تعترف، نحن هنا طاقم مختار من أفضل قادة وجنرالات المخابرات الإسرائيلية ولسنا موظفي مراكز فرعية.

ضحك فارس وحدق في عيني المحقق، فسأله مستغرباً.

- لماذا تنظر إلى هكذا؟

- جميعكم تقولون ذلك، أنا أفهم شيئاً واحداً، أنتم أعداء تريدون قتلنا ولا فرق بينكم وأنا رأسي ولساني واحد وقراري واحد، ولن اعترف بشيء وسوف ترى وتقتنع!

فما كان من المحقق إلا أن ضغط على الجرس وأومأ للجنود الذين أخذوا فارس إلى الممر ثم قاموا بربط يديه بحبل بلاستيكي وراء ظهره، ثم ربطوه منهما بالمواسير المثبتة على جدار الممر، فصار معلقاً لا تكاد رؤوس أصابع رجليه أن تلامس الأرض، بقي عشرة أيام متتالية على هذه الحالة، جاءه ملاك الموت خلالها أكثر من مرة، حتى لم يعد يعرف ماذا هو، هل هو حي أم ميت، وهل هذا العذاب الذي يلقاه، يتعرض له على الأرض أم في السماء، يتمنى الإغماء أو النوم، لكن حبات الحمص التي كانت تصطدم برأسه بإيقاع رتيب، كانت توقظه من محاولات الهرب إلى النوم من عذابه الذي لا يطاق، يفتح عينيه، فيرى الجندي على بعد أمتار منه، متشقلباً، لكنه يحمل بيده كيساً مليئاً بحبات الحمص، يناوله كل خمس دقائق واحدة، يشعر بالظمأ فيرى كأس ماء مثلج قبالته لكنه بعيد عنه، لا ينسكب ما فيه في جوفه الملتهب، يرغب بقضاء حاجته لكنهم يرفضون، فقد فعلها بالأمس، ثم يجيبون باحتجاج.

- من أين تأتيك الحاجة وأنت لم تأكل سوى مرتين.

استجمع ما تبقى في أوصاله من بقايا الحياة، وبدأ بالغناء.

- من سجن عكا طلعت جنازة

محمد جمجوم وفؤاد حجازي

جازي يا شعبي عليهم جازي

المندوب السامي وربعه عموما.

وفي اللحظة الفاصلة بين الموت والحياة، فكوا وثاقه، فتهدم ككومة من القش، وغط في نوم عميق. جاء جنديان وسحباه إلى غرفة التحقيق، أيقظه المحقق بركلة من حذائه، لكنه بالكاد كان يستطيع أن يفسر ما يدور حوله، ما جال بخاطره لحظتها، أنه سيضحك في وجه المحقق وسيقول له، ألم أقل لك أنني لا أعترف, هذا ما كان يفكر فيه، حين تناهى إلى سمعه صوت جاء من البعيد... انه يعرفه، يا إلهي ما أجمل هذا الصوت، شعر بالحياة تعود إليه من جديد، فتعرف على صاحبة الصوت، إنها شقيقته، ثم فهم كل شيء!

- نحن لا نريد منك سوى الاعتراف عن ذلك المسؤول عن كل شيء، من هو الملثم؟ كيف تتصلون بدمشق؟ لن نتركك حياً إذا لم تعترف.

- لن أعترف.

- أنت مجنون

- وأنت غبي

- سأقتلك.

- ليس مهماً، المهم لن أعترف، لن أخون.

- أقسم بشرفي أنك ستموت، سنقتلك ببطء، سنجعلك تنفجر من داخلك ثم نقتلك.

- أنا لا أخاف الموت، فسوف يتابع الآخرون طريقي!

- أنت مجنون تظن أن الملثم يتذكرك الآن، لا أحد يتعذب معك.

- أنت واهم وتكذب على نفسك وليس علي، إنه لا يكف عن التفكير بي، وكل ساعة يحضر إلى زنزانتي ويشد على يدي، يقبلني ويهمس بأذني، أصمد فالنصر قريب، أصمد وحارب، فالقتال يدور في كل الجبهات وجبهتك خندق متقدم، دافع ولا تتراجع، حارب ولا تنظر للخلف وسوف تنتصر أنت، وأنت نحن، ونحن أنت.

- ألم أقل لك أنك مجنون، فأنت تهذي وتقول هلوسات غريبة، إذا أردت أن تنام فاذهب وغداً تأتي للاعتراف، مسكين يا فارس لقد فقدت عقلك من الشبح.

- حالتي في علم النفس تسمى الانصهار الكلي في هموم الناس، حالة توحد الذات بالمجموع.

- أنت صعب يا فارس، ارحم نفسك، ستموت إذا صممت على تحدي المخابرات.

واجبي في هذا الوطن أن أتحداكم وأن أقاتلكم حتى النصر.

***

بعد تسعة شهور من بدء التحقيق، عقدت المحكمة جلستها، بحضور فارس ووالدته ومحاميته وممثل الدفاع، حيث تقرر وقف التحقيق الذي استمر معه طوال الفترة، كما تقرر إخراجه من الزنازين الانفرادية والسماح لذويه بزيارته. وهكذا التقيته في اكس غسان كنفاني, كان حذراً في البداية، لكنه سرعان ما بدأ بسرد الأحداث، وبادرني بالسؤال عن معنوياتي وكنت أعاني من الوحدة وبعض التشاؤم، لكنه شد من أزري، كان رجلاً رقيقاً، يحلم بوطن صغير يتسع للانسان والزيتون والحمام، وكان يقول لي:

تصور انهم يضطرون لاحتلال جنين كل لحظة، ما زلت أذكر الإشاعات التي كانوا يروجونها في السجن حول محاولته الانتحار، بعد أن قاموا بإهمال بعض التشديدات الأمنية حوله، وحين لمّح له الضابط المسؤول حول بعض الإرشادات بكيفية الانتحار، رد عليه بحدة قائلاً: خسئت فمن يتحدى

ويصمد تسعة شهور منفرداً لا يمكن إلا أن يكون قوياً وصلباً كالفولاذ، مقبلاً على الحياة وكأنها لم تبدأ بعد.

وحين زارته أمه آخر مرة، قبل الشبّاك الذي لمسته يداها، ثم بكى، حدثها عن كل شيء عن أحلامه، عن أمانيه، عن الصغيرة، عن الوطن، الناس، أزقة المخيم، ثم دس لها رسالة كان قد قضى وقتاً طويلاً في كتابتها، تلك الرسالة التي حفظت في ملف المحامية السيدة سارة.

في تلك الأثناء كان يتابع قضية مأمون الشويكي، باعتباره واحداً من قياديي السجن، إلى أن توقفت المعلومات المتعلقة بالقضية عنه فجأة، حين بدأ مأمون بكشف أسماء أعضاء شبكته وبالذات حين ذكر اسم نائبه في رئاسة الشبكة إياها.

انتبهت إليه ذات ليلة إلى أنه يندس تحت البطانية، ولكنه لا ينام، فيبقى ساهراً طوال الليل، حتى إذا ما طلع النهار، أغمض عينيه ونام، وكأنه كان يكلف نفسه بحراستنا طوال ساعات خلودنا للنوم، تأملته ملياً، فلفت إنتباهي ارتخاء عضلات وجهه وكأنه كان يبتسم منذ يوم ولادته، لا أثر للكآبة عليه أبداً، كان يعيش حياته برخاء تام، بغض النظر أين يكون, في السجن أم خارجه, لا فرق، هكذا خيل لي، فسألته:

- يا فارس ألم تؤثر عليك الوحدة الطويلة في الانفرادي؟

فأجاب ضاحكاً:

- أينما وضعوني سأخرج من تحت الماء ومعي سمكة!

أمام محكمة العدل العليا، وضعت الأستاذة سارة ملفها، بعد أن ضمنته رسالته الأخيرة التي كتبها قبل موته بثلاثة أيام وجاء فيها:

أهلي الأحباء . . . والدتي الحنونة.

تحية طيبة وأشواق قلبية وبعد.

لقد وصلتني رسالتكم، وإنني في الحقيقة أقرأها كل يوم تقريباً لما فيها من معانٍ كبيرة، تدفع إلي بزخم عظيم، وتعطيني قوة جديدة، كل لحظة أقضيها هنا في الوحدة. وإن القصيدة التي يهدينى إياها الرفاق، قد تركت في نفسي أثراً عميقاً يدفعني حقاً إلى أن أكون فعلاً ذلك البطل الصامد، وكلي أمل متجدد في حتمية انجلاء وحدتي وانتهائها بالظفر. إنني أدرك أن وضعي هنا في الوحدة له أهداف عديدة وفي مقدمتها عزلي اجتماعياً عن أبناء جلدتي، ظانين أن ذلك سيؤثر على قناعاتي الفكرية والسياسية، ولكن لن تنجح خططهم تجاهي ولن أتوقف عن النضال في سبيل الحرية، حتى آخر رمق وآخر نفس من حياتي، وكلما زاد الألم وزادت الصعوبات والأشواك، فهذا لن يكون بالنسبة لي عامل تراجع أو توقف، وإنما عامل دفع ومحفز لمواصلة المسيرة، ويزيدني عناداً وإصرارا على المضي قدماً في سبيل الحرية.

أحبتي:

قلبي مفعم بالمشاعر نحوكم ونحو أصدقائي ورفاقي في السجن، ولعل البعد يزيد هذا الشوق، والوحدة تلهبه لدي، بحيث أنني أنتظر دائماً بفارغ الصبر، متلهفاً لرؤيتكم التي لا تشبع ظمأي أبداً،

وأنني كذلك أنتظر موعد المحكمة لأخرج من هذا القبو، لأستمع وأرى رفاقي حتى لو كان ذلك عن بعد.

أحبتي:

آمل أن تقوموا بحثّ المحامية على زيارتي، فلحد الآن لم تحضر لمقابلتي، وقد قابلت الصليب الأحمر، وإنني أنتظر منه جواباً، وبالنسبة للمحامية فهناك قضايا لابد من بحثها معها، والتي تتعلق بوضعي الحالي – الانفرادي – وكذلك بخصوص القضية التي سأحاكم عليها وكيفية تنظيم الدفاع عني في المحكمة، لأن ملابسات هذه القضية فيها شيء من التعقيد ولم أبحث معها هذا الموضوع مسبقاً، بسبب ظروف التحقيق السابقة، ولكن الآن هناك مجال لبحثها باستفاضة، فإنني آمل أن تحثوها على المجيء لزيارتي لهذا السبب.

أهلي الأعزاء:

إنني أتطلع لأخباركم دائماً من خلال وسائل الإعلام، ولا يسعني إلا أن أشد على أياديكم. آملاً بصبركم على الظروف العسيرة التي أنتم فيها، متمنياً لكم دوام التقدم والنجاح والصبر على ظروفكم.

أخيراً فإنني أطيّر لكم سلاماتي الحارة، للوالدة الحنونة وتقبيل أياديها الطاهرة والاخوة صالح وعلي ومحمد وللأخت سعاد وأم جهاد وسلمى وأخيراً أبناء صالح , جهاد واياد وعماد.

ولكم مني جميعاً أحر السلامات وأحلى الأمنيات.

من هو في شوق عاصف لرؤيتكم

ابنكم

المشتاق أبو الفوارس

بعد الحاح متواصل منه، اضطر رفاقه إلى مواصلة اطلاعه على مجريات التحقيق في قضية صالون الشرف، وكان مأمون يواصل الحديث مع ماهر السعدي، كاشفاً أسماء من معه فبدأ بهم من حيث الأهمية.

- لقد عرفنا أنك كنت المسؤول الأول عن الشبكة، فمن كان يتحمل المسؤولية معك؟

سأله ماهر

فأجاب مأمون:

– لقد كان لي نائب أو بالأحرى نائبة، كان أبوها قد اغتيل منذ سنوات بتهمة العمالة مع سلطات الاحتلال، متزوجة ولها ابنة، وقامت بتجنيد أخيها بعد أن حاول أن يعيق عملها في البداية، وكان لا يعرف ماهيته، وبعد أن تم توريطه معنا،

طلبهما الضابط الياس، والتقى بكل منهما على انفراد، التقاه أولاً، ثم التقاها، فأخبرها بضرورة أن تستجيب لما يطلبه أخوها، ولما عادا إلى البيت، طلب منها بعد أن أغلق حجرته عليها أن تخلع ملابسها، ففعلت، ثم . . . أن تنبطح على سريره.

آه من هذه المرأة، لكم هي شهية، إنها امرأة حقيقية، ما أن تفرغ فيها شهوتك، حتى تكاد لا تطيق النظر إلى خلقتها، وهي لم تكن عديمة الإخلاص لزوجها فقط، بل كانت تجيئنا بالمعلومات عنه، المعلومات التي تستطيع التقاطها، بحكم مرتبتها الحزبية التي لم تتقدم بعد، وكانت ثقته بها من هذه الناحية لا تتجاوز حجمها التنظيمي.

لا أدري كيف ورطوها، لكنها كانت تقوم بعملها بإخلاص، وأعتقد أنها كانت شبقة، تصطاد الرجال بما يرضي غرورها الأنثوي، حتى الضابط الياس، قبل يدها، حتى وافقت أن تنام معه هذا ما رواه لي حسن أخوها.

وكان الضابط قد عزمنا يوماً على عشاء عمل، اتبعه بسهرة في بار صاحب، وقد اضطررت بناء على ايماءة فهمتها من الضابط أن أغادر فيما واصل الإخوان الشرب والسهر معه، إلى أن جاءت فتاة كل ما فيها يشير إلى أنها "أرتست" كباريه، عرفهما عليها على أنها ابنته، ثم اقترح عليهم أن يكملوا السهرة في شقتها.

فعلوا وتوجهوا إليها وكانت هادئة ورومانسية، وفيها يستطيعون أن يأخذوا راحتهم تماماً.

في ساعة متأخرة بدأت رؤوس الآخرين تترنح من السكر، فيما الابنة تداعب الفتى الأسمر، وما لبثت أن سحبته من يده إلى غرفة بالداخل، لم يعارض الأب، وشرح لها أنه رجل ديمقراطي لا يتدخل في رغبات ابنته!

وهكذا انفرد هو برحاب، فسحبها بدوره من يدها ودخل بها ذات الغرفة، وكانت ليلة ليلاء!!

– ماذا؟ قلت رحاب؟

– نعم أخت حسن الطويل؟

دارت الدنيا لحظتها بفارس، وقضى ثلاثة أيام بلياليهما لا ينام ليلاً ولا نهاراً، فذوى ولجأ إلى الصمت التام، فلم ينطق خلال الأيام الثلاثة بكلمة واحدة.

- 20 -

لم تقو على القراءة أكثر من ذلك، فتضع الأوراق بجانبك، ثم تطفيء النور وتستلقي على الفراش، تنظر إلى السقف وقد بدأ ينتابك شيء من النعاس، تراك فارساً محمولاً على الأكف، فيما الدماء الحارة تنز من جمجمتك، بينما تسير وراءك الجموع وهي تنشد:

– بالروح . . . بالدم نفديك يا شهيد؟

تتمنى لو يجيئك الخبر بأن زوجتك أنجبت ولداً فتسميه بدون تردد . . . فارس؟

- 21 -

بعد أسابيع وفيما العقيد البدري في الموقع الحدودي، يجيء البريد ببرقية معنونة إلى المقاتل أحمد النايف، فيقرأ ما جاء فيها.

– مبروك، منتهى أنجبت طفلة جميلة وذكية، والطفلة وأمها بصحة جيدة، ماذا نسميها؟

وضع البرقية على مكتبه، ثم تناول قلماً وورقة وكتب:

– سموها فرح.

ثم طوى الورقة وأرسلها بالبريد.